مائة سؤال عن الإسلام

للشيخ/ محمد الغزالي

دراسة

أ. د. محمد عمارة

الجزء الخامس والأخير



مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
تأسست عام ١٣٤٩ هـ - ١٩٣١م



٨٠- لماذا حرم الإسلام الخمر؟ وما عقوبتها؟

بيـن يديّ العـدد ٣٨ الذي أصدرته منظمة الصحة العالمية سـنة ١٩٨١م عـن الكحـول والعقاقير المخـدرة، وقد أَجلْـت النظر في صحائفه فوجدتها ملأى بالنُذُر من ضراوة الخمر وفتك المخدرات، ووجدت دراسـات طبية وإحصاءات اجتماعية تثير التشـاؤم بسبب كثرة السكارى والمدمنين!

تحـت عنـوان (ثمـن الكأس) جـاءت هـذه العبـارة: إن الخمر شـراب يبعث على السرور والاسترخاء لدى الألوف المؤلفة! ولكن المشـكلات التي تنشأ عنها تعوق التنمية الاقتصادية والاجتماعية، بل تهدد بفيضانها العرم كل الخدمات الصحية المتاحة.

ثـم يقول الكاتب (جون مادبي): إن الخمر تسـببت في وفاة ما بيـن ٣٣٪ و٥٠٪ من ضحايـا حوادث الطرق في البـلاد المتقدمة، وتتزايـد نسـبة الوفيـات في العالـم الثالـث، و(الكحـول) مخدر يمكـن أن يحطم الحياة العائلية، ويكلف الكثيرين فقدان مكانتهم الاجتماعية، أو وظائفهم ومواردهم التي تؤمن حياتهم!

كما يسـبب الكحول ثلاثة من عشـرة من حـوادث العمل، وهو أساس في ضعف الإنتاج، كما أنه سبب رئيسي في ارتكاب الجرائم، ذلك إلى جانب أن الكحول يؤدي إلى تليف الكبد، وهو يشكل عبئًا ثقيلًا على الخدمات الصحية في جميع أنحاء العالم، وفي اسـتراليا مثـلا نـراه العلة الأولـى وراء نصف المرضى في مؤسسـات الصحة النفسية!!

والخمـر من وراء فقدان الملايين من سـاعات العمل على امتداد

السنة، وقد قدرت الولايات المتحدة خسائرها في الإنتاج -بسبب الكحول- بعشرين مليار دولار سنويًا.

وفي مقال آخر عن الخمر والنساء تقول الكاتبة: إن النساء المدمنات يعانين أكثر من الرجال من أمراض الكبد، رغم قلة المقادير التي يتناولنها، كما أن استجابتهن للعلاج أقل من استجابة الرجال، وينتهي أجلهن في سن أصغر من نُظرائهن من الذكور!

وفي مقال عن الخمر والشباب بدأ الكاتب حديثه بهذه العبارة: عندما يشرب الآباء الخمور، فإن الأبناء هم الذين يدفعون الثمن.

والواقع أن الآباء والأبناء جميعًا يدفعون الثمن الفادح، إن كانت العبارة الأولى هي التي رفعها الفرنسيون شعارًا لهم في أعقاب الحرب العالمية الثانية!

ومما يلفت النظر أن المستعمرات بعد تحررها يزداد استهلاكها للخمور! وأن دولًا كثيرة في العالم الثالث تقبل على السكر وتتجه إلى الإدمان، وليس هذا عجيبًا، فإن الفهم الأعوج للحضارة والتقليد الأعمى للغربيين من وراء هذا الانحطاط المبين.

إن الإسلام حرم الخمر، وعدها من كبائر الإثم! ونظمها في سلك واحد مع الزنى والسرقة، ففي الحديث: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»[صحيح البخاري].

وعن أنس بن مالك: «لعن النبي ﷺ في الخمر عشرة! عاصرها، ومعتصرها، وشاربها، وساقيها، وحاملها، والمحمولة إليه، وبائعها، ومبتاعها، وواهبها، وآكل ثمنها»![سنن الترمذي] وظاهر من هذا الاستقصاء أن الشارع يريد قطع دابرها، ومحو آثارها، وإغلاق كل الأبواب التي تؤدي إليها.

والقرآن عدها مع الوثنية والقمار وأوهام الشرك:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾

(المائدة: ٩٠ ، ٩١)

والخمر كل ما غطى العقل، وأعجز الفكر أيًا كان مصدره! يستوي فيه العنب والموز والقصب، ويستوي فيه الجامد والسائل، فإن القصد واضح، الله كرم الإنسان بالعقل، فما أضاع العقل حرام.

ومن السخف كذلك تصور الشارع يحرم الخمر السائلة، ويتجاوز عن عقاقير جامدة قد تكون أشد من الخمر ضراوة وأعظم فتكا، وإذا كان أئمة الفقه الأقدمون لم يذكروا الحشيش والأفيون فلأن بيئاتهم لم تعرفه.

فلما ظهرت بعض المخدرات... عدها بعض الفقهاء من الخمور، وفي أيامنا هذه ظهرت عقاقير أخرى كالكوكايين، والماريجوانا وغيرهما تغتال العقول، وتهلك المدمن وتستأصل إنسانيته، فكيف تترك؟

وفي الحديث: «كل مسكر خمر، وكل مسكر حرام» [صحيح مسلم] وفي حديث آخر: «إن من العنب خمرًا، وإن من التمر خمرًا، وإن من العسل خمرًا، وإن من البُر خمرًا، وإن من الشعير خمرًا. وأنهاكم عن كل مسكر»![سنن أبي داوود]

وظاهر من الحديث أنه يسوق نماذج، ثم يذكر القاعدة العامة، ونحن لا نهتم بالأسماء، ولا بالمصادر، وإنما نهتم بالتشخيص

العلمي للأشربة والعقاقير، فما ثبت تغييبه للعقل، أو ما أفقد المرء اتزانه الفكري فهو محرم بيقين ! !

ولم تكن الخمر مألوفة في البيئات الإسلامية، وأذكر أنني في طفولتي سرت مع موكب كثيف من أهل قريتنا وراء رجل ثمل، نستغرب تمايله ونستنكر سكره ! وعرفت أنه سكر في حانة فتحها بعض اليونانيين في ظل الاحتلال الإنجليزي.

ثم أخذت الخمر تشيع مع هيمنة الاستعمار على شئوننا، ثم أمست معهودة في الأحفال (الدبلوماسية) وعلى موائد بعض المنحلين !

والواقع أن الخمر غامضة الحكم بين النصارى ! وأغلبهم يستحل قليلها، وينأى عن كثيرها ! وإن كان القليل عادة يجر إلى الكثير، وتلك طبيعة عامة في الأشربة المسكرة والعقاقير المخدرة.

ومع اضطراب الأعصاب، وما وفدت به المدنية من هموم، رأينا من يؤثر الغيبوبة على مواجهة المكاره ! ولا بأس أن يغمض بصره أو بصيرته حتى لا يرى ما يكره !

أهو منطق العامة ؟ أم هو لون من الانتحار ؟ أم هو التماس السرور في الأوهام كما قال الأعرابي الأبله :

وإذا سكرتُ فإنني رب الخَوَرْنَق والسدير ![1]
وإذا صحوت فإنني رب الشويهة والبعير !

إن فترة الغيبوبة التي يحدثها السكر تعطل عمل العقل وتترك الشهوات سائبة دون قيد، وتتيح الانطلاق الحيواني دون خوف على كرامة أو تهيب لسلطة !

وقد حكى الأدباء أن بدوية وفدت على بغداد، وحضرت عرسًا

---

(١) الخَوَرْنق والسدير: قصران في الشام. (المجلة)

يشرب فيه المنكر، فلما انتشت قالت: أيشرب هذا نساؤكم؟ قالوا: بلى! قالت: زنين ورب الكعبة!!

الحق أن تحريم الخمور حفاظ على الدين والشرف والخلق والكرامة.. إلا أن الأوروبيين مشوا في طريقهم، فلما رأوا المخدرات سريعة التدمير للأمة حظروها بعنف، ويوجد تعاون عالمي على مطاردة هذه المخدرات، ومعاقبة تجارها ومتناوليها.

أما الخمر فقد ازداد الإحساس بضراوتها في الأيام الأخيرة وتوجد حكومات غير إسلامية تحرمها -كالهند مثلًا- لضرورات قومية.

وفي العالمين الرأسمالي والشيوعي تنطلق الدعايات الصحية والاجتماعية للتنفير منها، وإبراز مقابحها، فهل ذلك يكفي؟

إن الإسلام تأنى في إعلان حكمه على الخمر، وإن كان من أول يوم ينظر إليها شزرًا، ولم يقرر مهاجمتها إلا بعد أن أقام دعائم من الإيمان، وضوابط من الأخلاق تعين على الخلاص منها، فلما أصدر الحكم بعد هذا المهاد أريقت دنان الخمر في الأزقة، ورميت قِرَبُها في المزابل. أي إنه لا بد من مقدمات نفسية وفكرية تسبق أو تساند الحظر.

وجمهور الأطباء والمربين والساسة والقواد العسكريين يكافحون المسكرات في العهود الأخيرة، وأظن أنه لا يمنع من عقاب شاربيها إلا الخوف من التشبه بالإسلام!

والفقه الإسلامي يضع حدًا لشارب الخمر قدره ثمانون جلدة، وليس لهذا الحد سند من الكتاب الكريم أو السنة المطهرة، وإنما اتفق عليه جمهور الصحابة، وأوصى به الدولة فنفذته! ومن الفقهاء من يكتفي بأربعين جلدة.

وفقهاؤنا مجمعون على أن من سكر من أي شراب نفذ فيه الحد،

وإن أخــذ أي جرعة من الخمر أســكرت أم لم تســكر حــرام، وفيها العقوبة المقررة.

إن دولاً كثيرة عاقبت تجار الأفيون ومتناوليه بالقتل، ولم يسلم لهــا كيانها إلا بهذا العقاب الصارم، ومع أن قليلاً من الأفيون يحتاج إليــه صحيًا. وفي مجلة الصحة العالميــة التي أومأت إليها آنفا: «إن المواد المشــتقة من نبــات الأفيون مثل (الكودَيــن) و(المورفين) مفردات مهمة في دستور العقاقير»!!.. فهل شفع ذلك في تخفيف العقوبة على مروجيه ومدمنيه؟!

فلمــاذا نتهــاون فــي مجال المســكرات، ثم نشــتط فــي مجال المخدرات؟ قد تكون نســبة الكحول في البيرة وما يشــبهها ٣٪ أو أزيد قليلاً، بيد أن الملحوظ في هذه الأشربة أن قليلها يجر كثيرها، أي إن الذي يشرب زجاجة من البيرة يتجرع من سموم الكحول مثل أو أكثر من الذي تناول كأس خمر!!

٨١-التدخين عادة شائعة فهل للدين رأي فيها؟

لم يكـن التبغ موجودًا علـى عهد النبوة حتى يصـدر فيه حكم، وليست له خصائص الإسكار التي لأنواع الخمور حتى يمكن إلحاقه بهـا، ومن ثم فإن الحكـم له أو عليه يرتبط بالآثـار التي يتركها في جسم الإنسان.

ولم أقرأ لأحد كلمة في أن للتدخين فائدة، بل إن جمهرة العقلاء من باحثين وأطباء أطالوا القول في أضرار التدخين، ويكاد إجماعهم ينعقد على أنه سم بطيء!

وقـد طالعت عـددًا مـن المجلـة التـي تصدرها منظمـة الصحة العالمية عنوانه الواضح على الغلاف (التدخين نقمة والصحة نعمة والاختيار لك)!

وفـي المقـال الأول من هـذا العـدد وردت هذه العبـارات: «لقد اتضحت العلاقة بين تدخين السجائر وطائفة من الأمراض المزعجة! كما اتضح أن نسـبة الوفيات بين المدخنين أزيد كثيرًا من نسـبتها بين رافضي التدخين! ولعل أكثر الأمراض ارتباطًا بتدخين السـجائر سـرطان الرئة، والتهاب الشـعب، وانتفاخ الرئـة، وأمراض القلب، وأمـراض الأوعية الدموية! وترجع ٨٠٪ مـن الوفيات المتزايدة إلى هذه العلـل! وهناك أمراض أخرى أكثر شـيوعًا بين المدخنين، هي سرطان الشفة واللسان والفم والحنجرة والبلعوم والمريء والمثانة! ويتكرر حدوث قرحة (الاثنا عشر) بين المدخنين أضعاف حدوثها بين غيرهم... إلخ.

وقـد تأملت فـي هذا الـكلام طويلًا، ولـم أسـتطع رده، ولكني تساءلت: لماذا تبدو هذه النتائج ببطء حتى أن البعض يرتاب فيها؟ وعلمت أن الخالق أبدع تكوين الجسـم البشري، وأودع فيه مقاومة

شـديدة للبـلاء الهاجم ! كأن الجسـم ثوب متين النسـيج يمكن أن تحمل فيه الحديد والحجر دون أن يخترق ! بيد أن كثرة الاستعمال، سوف توهن قدرته يومًا فلا يتماسك أمام شيء يوضع فيه !

وربمـا ظـن البعض أنـه محصن ضد السـرطانات وضـروب الأذى المقرونـة بالتدخين وليس لهذا الظن أسـاس علمـي -لكن يبقى ما لا شك فيه، وهو أن التدخين مضعف عام للصحة، وأن جهد المدخن أقل من جهد غيره، وأن الرائحة الرديئة المنبعثة من التبغ المحترق تلوث الفـم والأصابع والملابس والجـو المحيط بالمدخنيـن، بل إن رائحة التدخين قريبة من النتن، ومن حق الشخص السوي أن ينفر منها.

وجمهـور كبير مـن المدخنيـن ليس واسـع الثراء حتـى يحرق أمواله بلا مبالاة، لقد ظهر أن الألوف المؤلفة من صرعى هذه العادة يحتاجون وتحتاج أسـرهم إلى هذه النفقـات الضائعة لتوفير الألبان والفواكه والأطعمة التي لا غنى عنها.

وقـد رأت الحكومـات علـى المسـتوى الدولي أن تـدق أجراس الخطر ضد التدخين، ولكنها اكتفت لأسباب -نضرب عن ذكرها- بإلصاق لافتة على كل علبة سجائر تشير إلى ضرر التدخين !

والعـدد الذي بين يديّ من مجلة الصحة العالمية يقول: «بالرغم مـن تحـول صناعة السـجائر فـي البلدان الغنيـة إلى إنتاج سـجائر تنخفض فيها نسبة القطران ! وسجائر مزودة بالمرشحات (الفلتر) فـإن السـجائر المصدّرة إلى العالـم الثالث عمومًا تحوي نسـبة من القطـران تزيـد ثلاثـة أو أربعـة أمثال على ما يشـابهها فـي البلدان المتقدمة» !

إن حياة السـكان فـي العالم الثالث تافهـة، ولا معنى للمحافظة على صحتهم !

والحقيقة أن التدخين بدأ يقل في أغلب الأقطار الواعية، وأن طوائف كثيرة من المثقفين هجرته، وقد قرأت في مجلة الصحة العالمية المذكورة، أنه تبين من دراسة أجريت على ٦٠٠٠٠٠ طبيب بريطاني أن نصفهم كف عن التدخين بين عامي ١٩٥١ و١٩٦٥م، ونتيجة لذلك انخفض معدل الوفيات بين الأطباء.

إن شركات التدخين العملاقة تجد ضحاياها في العالم الثالث، وقد ارتفعت نسبة التدخين بل نسبة السكر بين الألوف المؤلفة في هذه الأقطار التعيسة، وافتن هذا المعلنون في اجتذاب الفرائس الغبية، فهذه امرأة أفهموها أن التدخين يزيد جاذبيتها! وهذا عَيِّل أفهموه أن التدخين رجولة! وهذا عامل أفهموه أن التدخين يجعله فارسًا لا ينقصه من مظاهر الفروسية إلا أن يمتطي صهوة حصان، أو حمار!! وهذا امرؤ مستغرق في فكر عميق يحلم مع سحب الدخان المنعقدة من سيجارة، بم يحلم؟! أو فيم يفكر؟ في هراء وخديعة كبرى!

إن التواطؤ على استغلال العالم الثالث بلغ حد الفجور في الاستخفاف والاستغلال، فقد كتب محرر جريدة (الراية) تحت عنوان (عقاقير الموت) هذا الخبر: أجرى فريق من علماء جامعة (كاليفورنيا) دراسة خلال السنوات العشر الماضية في أكثر من عشرين بلدًا من بلدان العالم النامي، تم خلالها تحليل نحو ٥٠٠ دواء وعقار من المعروضات الصيدلية التي تنتجها ١٥٥ شركة عالمية وتصدرها إلى أقطارنا! ثم أصدرت الجامعة نتيجة هذه الدراسة في كتاب نشرته بعنوان: (وصفات الموت في العقاقير الموردة لبلاد العالم الثالث).

وتؤكد النتائج أن بعضًا من كبريات الشركات العالمية ذات

المكانة المرموقة في إنتاج الأدوية والعقاقير الطبية، تسوِّق منتجاتها في أقطار العالم الثالث بوسائل من الإعلانات المكذوبة والدعايات القائمة على الغش والرشوة والخداع، وتتغاضى هذه الشركات عن ذكر الأعراض الجانبية للأدوية التي تبيعها، والمضاعفات الخطيرة التي تنشأ عن منتجاتها، وكثيرًا ما تكون لها عواقب وخيمة ومميتة.

وأشارت الدراسات إلى أن أربع شركات وحسب من الشركات الـ ١٥٥ هي التي تلتزم بأمانة العمل وأخلاقياته، وذكرت أن الأدوية المعروضة تتنوع بين علاجات للصداع والحمى ومهدئات، وبين مضادات حيوية، أو حبوب منع الحمل.

قال المحرر: وبما أننا من أبناء العالم الثالث فإن أسواقنا سوف تبقى مجالاً لهذه الأنشطة المسمومة، وسوف تبقى مستهلكة لمقادير ضخمة من أدويةٍ الطالح فيها أضاف الصالح.

الحقيقة أن الأمم الغربية لا تعدنا بشرًا مثلهم، وأنهم ينظرون إلينا باستهانة أو بازدراء!.. إن كلمات الشرف والاستعفاف والأمانة ملغاة في معاملتنا، ونحن المسئولون عن هذا السلوك المحقور

ومن دعا الناس إلى ذمه ذموه بالحق وبالباطل!

إن قدرًا كبيرًا من الأموال العربية يذهب في مطالب السرف ومظاهر الترف التي تسيطر على الخاصة والعامة!

والغربيون يعلمون أن تقاليد الرياء الاجتماعي هي التي تحكمنا، وعن هذا الطريق يستنزفون ثرواتنا.

يخرج من بيته واضعًا السيجارة في فمه، وبيته محتاج إلى بعض الضرورات، وحسبه ذاك من مخايل الرجولة! والغني يبعثر بيديه في ميادين اللهو الحلال والحرام، وهو يعلم أن أعدادًا لا تحصى من المسلمين قتلهم الجفاف أو استحوذ عليهم التبشير فكفروا بعد إيمان!

وقـد كنت أحيانًا أنظـر إلى العمال وإلى الفلاحيـن العائدين من الجزيـرة والخليـج ، فأعجب لما يحملـون من هدايا ! لقـد أهدروا عرقهـم المبذول في أجهزة التليفزيون والفيديو ، وعادوا ليسـهروا عليها مع الأصحاب ، مضيعين بسـهرهم العشاء والفجر ! ومبتدئين بعدئذ نهارًا لا بركة فيه ولا إنتاج .

لأدع هذا الاسـتطراد -وما منه بد- ولأسأل : هل التدخين مباح ؟ إنني لا أقدر على الحكم بإباحته بعد ما قرأت عن أضراره المؤكدة .

هـل هو حرام ؟ قـد يكون حرامًا علـى بعض النـاس ! وقد يكون مكروها عند البعض الآخر !

والغريب أنني قرأت لامـرأة مدخنة : أن رائحة التدخين أخف من رائحة الفم الطبيعي ! فأيقنت أنها هي أو بعلها مرضى ! وأنهما يجب أن يذهبا إلى طبيب يشـفيهما بدل أن يحكما بإباحة التدخين ، فقد قـرر أطبـاء محترمون أن التدخين شـديد الإضرار بالنسـاء ، وأنه قد يؤثر في صحة الجنين !

إن الرائحة الجميلة من شـعائر الإسـلام ، سواء كانت في الجسم أو في الملابـس ، والرجل الكريه ينبغي ألا يخالط الناس ، فإن صلاة الجماعة تسقط عنه ، ولا أستطيع القول بأن رائحة الدخان حسنة ! !

٨٢- ما حكمة الزكاة؟ وما نصابها؟

البخل عاهة قديمة في الطبيعة البشرية، ترجع إلى حب المرء لنفسه وحرصه على مصلحته، وارتيابه في المستقبل ارتيابًا يغريه بالادخار، والجمع بعد الجمع!

والدين لا يبغض للمرء نفسه ولا يزهده في مصالحها، ولكنه يرفض أن يتحول ذلك إلى تجاهل للآخرين، وفقدان للشعور بوجودهم وحقوقهم! ولعل ذلك هو الفارق بين الإنسان والحيوان!

فالحيوان ما يتحرك إلا وفق قوانين اللذة والألم، إنه يستقتل من أجل قوته أو قوت صغاره الذين هم امتداد له، والعالم في عينه لا يتجاوز هذا النطاق.

والإنسان القريب من الحيوان يصبح ويمسي محصورًا في مآربه ومطالبه، لا يفكر أبعد من ذلك فليحيا هو ولتمت الدنيا كلها بعدئذ.

وقد جاء الإسلام فخلع الفرد من هذه الأثرة، وجعله جزءًا من كيان مشترك أو جسد واحد، وأفهمه أن الإيمان يقتضي محبة الآخرين والرحمة بهم، واحترام مصالحهم، وقد يقتضي الإيثار والعطاء المبرأ من المن.

قال تعالى:

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾

(التغابن: ١٦)

وقال:

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾

(الليل: ١٧ - ٢٠)

وعند التأمل نجد أن حب المرء لنفسه ونسيانه لغيره يكمن وراء تشبعه مع جوع الآخرين، وتطلعه إلى مزيد مع فقدان غيره للضرورات الماسة! ولم أعرف شيئًا يورث الضغائن كهذا التفاوت، إنه يحول الجماعة البشرية إلى قطيع متوحش!

ومحنة الدين في المجتمعات التي تحولت إلى الماركسية أتت من ذلك التفاوت الظالم، والثوار ما كانوا حاقدين على الوجود الإلهي قدر ما كانوا ضائقين ببطنة الكهان ومسغبة البائسين.

وقد رأينا القرآن الكريم يَعُدُّ أولئك الكهنة البطان هم السبب في كفر الناس، ويعتبر مسلكهم صدًا عن سبيل الله

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾ (التوبة: ٣٤)

والكلام في الزكاة فرع تنقية الطباع من الشح، وغرس الأخوة المتحابة المتراحمة المتكاملة.

وقبل أن أعطى أحدًا من مالي أنا باسم الزكاة يجب أن أضمن للكادح ثمن عرقه، وجزاء سعيه!

لقد رأيت قاعدين يشركون الآخرين في ربحهم تحت عناوين ما أنزل الله بها من سلطان! والإسلام بريء من هذا الجشع والغصب!

إن دور الزكاة يجيء بعد إرساء قواعد الحلال والحرام، فإذا حدثت ثغرات في المجتمع بعد تسييره وفق سنن عادلة فإن الزكاة تمسح الآلام، وتنشر الرحمة والوئام، إن الزكاة طهارة نفسية واجتماعية قبل أن تكون مساعدات مادية

﴿ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

(التوبة : ١٠٣)

لم أعرف نظامًا دينيًا في الأولين والآخرين اهتم بالزكاة والصدقة مثلما اهتم الإسلام، وفي كتاب الله وسنة رسوله آيات وحكم تحس معها كيف يريد الإسلام تعميم الخير وإشاعة النعمة ومطاردة البأساء والضراء، وجعل بسمة الرضا يصطبغ بها كل فم !

من قديم والناس يكرهون استخراج المال من خزائنهم، ويودون لو بقي لهم وحدهم، بيد أن الإسلام يقاوم هذه الرغبة، ويكسر حدتها، وإذا احتاج الأمر إلى مقاتلة أصحابها أعلن عليهم الحرب حتى يفيئوا إلى أمر الله، وهكذا فعل الخليفة الأول، فهل يتكرر ما فعل ؟

عن الأحنف بن قيس قال : «كنت في نفر من قريش فمر أبو ذر -رضي الله عنه- وهو يقول : بشر الكنّازين برضف [حجر] يحمى عليهم في نار جهنم، فيوضع على حلمة ثدي أحدهم حتى يخرج من نغض (أعلى) كتفه ويوضع على نغض كتفه حتى يخرج من حلمة ثديه، يتزلزل، فوضع القوم رءوسهم فما رأيت أحدًا منهم رجع إليه شيئا ! فأدبر، فاتبعته حتى جلس إلى سارية، فقلت : ما رأيت هؤلاء إلا كرهوا ما قلت لهم ! فقال : إن هؤلاء لا يعقلون شيئا ! إن خليلي أبا القاسم دعاني فأجبته، فقال : أترى جبل أُحد ؟ فقلت : أراه ! فقال : ما يسرني أن لي مثله ذهبا أنفقه كله إلا ثلاثة دنانير ! ثم هؤلاء يجمعون الدنيا لا يعقلون شيئا» [صحيح ابن حبان].

وقد جاءت عن أبي ذر رواية أخرى تفسر ما نقلناه هنا قال :

انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو جالس في ظل الكعبة فلما رآني قال: هــم الآخرون ورب الكعبة! قلت: يا رســول الله فداك أبي وأمي، من هم؟ قال: هم الأكثرون أموالا! إلا من قال هكذا وهكذا ثلاث مرات من بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله! وقليل ما هم! ما من صاحب إبل ولا بقر ولا غنم لا يؤدي زكاتها إلا جاءت يوم القيامة أعظم ما كانت وأســمنه تنطحــه بقرونها، وتطــؤه بأظلافها، كلما نفــدت أخراها عادت إليــه أولاها حتى يُقضى بيــن الناس» [صحيح مسلم].

وهذا الحديث يفيد إخراج الحقــوق المعلومة، والتيقظ إلى كل خلل يقع في المجتمع والمسارعة إلى سده، وهو ما قاله الله سبحانه:

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة: ٢٧٤)

وهــذا الإنفــاق المطلوب لا يعنــي أبدًا أن يظل المــرء ينفق حتى يفلس، ويصبح مساويًا لمن كان يعطيهم! فهذا فهم سخيف، وإنما القصد قهر البخل وإحســان المواســاة! عن جابر بن عبد الله -رضي الله عنه- قال: جاء رجل بمثل بيضة من ذهب، فقال: يا رســول الله، أصبــت هذه من معدن فخذها فهــي صدقة، ما أملك غيرها، فأعرض عنــه رســول الله ﷺ، ثم أتاه مــن قبل ركنه الأيمن فقــال مثل ذلك، فأعرض عنه، فأتاه من قبل ركنه الأيسر فقال مثل ذلك، فأعرض عنه، ثــم أتاه من خلفه فقال مثــل ذلك فأخذها ﷺ فحذفه بها فلو أصابته لأوجعتــه، وقــال: «يأتي أحدكم بما يملك فيقــول: هذه صدقة! ثم

يقعد يتكفف الناس ! خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى» ![سنن أبي داود]

وإنما شرحنا هذه القضية ، لأن البعض نسب إلى أبي ذر أنه يحرم الكنز ، ويأمر بالنفقة حتى لا يبقى شيء !

هناك حق معلوم مقدر في السُّنة الشريفة بربع العشر في الأموال المدخرة وعروض التجارة ، وبنصف العشر في المحاصيل التي يتكلف فيها أصحابها ، وبالعشر في المحصولات السهلة . . وأختار في الأراضي الزراعية المستأجرة أن تكون الزكاة بين المالك والمستأجر ، كما أختار القول بأن الزكاة في جميع ما تخرجه الأرض من حبوب وفواكه وثمار .

وقد جدَّت في ميادين المال أشياء تقتضي النظر في أحكام الزكاة المتوارثة ، فإن القواعد التي درسناها تجعل الوزير مثلًا لا يخرج زكاة عن مرتبه الذي ينفقه في بيته ، ما دامت النفقة تستغرقه ! على حين توجب الزكاة على فلاح يزرع فدانًا من شعير ، وتطالبه بحق الفقير يوم الحصاد ! كما أن أغلب الفقهاء القدامى لا يأخذون زكاة من فدان فاكهة يُدرُّ ألف جنيه ، ويأخذونها من فدان يدر ربع هذه القيمة [وذلك لأنهم حصروا المزروعات التي تؤخذ منها الزكاة في الأصناف التي كان النبي يأخذ منها ، غافلين عن تطور الحياة] .

وقد لفتُ النظر من أربعين سنة في أول كتاب ألفته إلى هذا التفاوت المثير ، وتحدثت عما أسميته زكاة المال وزكاة الدخل ! وقد كان ذلك إشارة محدودة إلى ما يجب عمله ، لاسيما أن الزكاة ليست عبادة محضة يستحيل فيها التغيير ، بل هي عبادة مربوطة بحكمة ، وتترتب عليها مصالح متجددة .

والواقع أنه يجب أن تقوم على عجل لجنة من الفقهاء

والاقتصاديين تترجم المصطلحات القديمة إلى مفاهيمها الحديثة، تبين كم تساوي عشرون مثقالا من ذهب، وكم تساوي مئتا درهم من الفضة وكم تساوي خمسة أوسق من الحبوب؟ وماذا يتركه التضخم من آثار في قيم الأنصبة؟

إن الزكاة عمل رائع في ديننا العظيم، وقد حصنت المجتمع الإسلامي من زلازل دكت غيره، ولكن الأمر يحتاج إلى مزيد من الدرس والتطبيق الواعي، وضبط الحقوق المعلومة، وإيصالها إلى أصحابها بأشرف أسلوب.

٨٣- ما العلاقة بين الإسراء وبني إسرائيل؟

ليس من قبيل المصادفات العارضة أن تروي آية فذة قصة الإسراء، ثم ينتقل السياق بغتة إلى تاريخ بني إسرائيل، وليس من قبيل المصادفات العارضة أن تسمى سورة الإسراء في بعض المصاحف سورة (بني إسرائيل).

بل أقول: إنه ليس من المصادفات العارضة أن يدخل صلاح الدين (بيت المقدس) ويسترده من الصليبيين في السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٣ هـ بعد أن لبث في أيديهم قرابة قرن: كأن الأقدار جعلت عودة المسجد الأقصى إلى المسلمين في ذكرى احتفالهم بالإسراء إشارة إلى أن المسجد الذي ورثه الإسلام يجب أن يبقى له، وأن العلاقة بين أولى القبلتين وأخراها لا تنفصم، وأنه لا الصليبية قديمًا ولا الصهيونية حديثًا ستغيران سنن الله في مصائر الأمم، وإن نجحت كلتاهما إلى حين في إلحاق هزيمة بالمسلمين!

ونعود إلى ما بدأنا به كلامنا.

قال الله تعالى:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (الإسراء: ١)

وعقب هذه الآية مباشرة نقرأ قوله تعالى:

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا﴾

(الإسراء: ٢)

ما العلاقة بين الإسـراء وإنزال التـوراة وتاريخ اليهود، ثم حكاية مفاسدهم والتعليق عليها، وتبصير المسلمين بعواقبها؟

إن الإسـراء كان مـن مكة إلى القـدس، ولليهود في هـذه البقاع تاريخ!

صحيـح أنه لم يكن لهم وجود في فلسـطين يوم وقع الإسـراء، بل كان وجودهم في فلسطين محظورًا، لكن وجودهم السابق لا ريب فيه.

وانتهاء هذا الوجود ثم حظره يحتاج إلى تفسـير، وهو ما أشارت إليه الآية وما بعدها في صدر سورة الإسراء، وهو ما أريد الآن متابعته من الناحية التاريخية.

كان الكنعانيـون يسـكنون فلسـطين قديمًـا وهـم سـلالات عربية كإخوانهم العدنانيين والقحطانيين، ويظهر أنهم تجبروا، وأثاروا الرعب حيـث يعيشـون، وأراد الله تأديبهم على مفاسـدهم، فسـلط عليهم بني إسـرائيل. وقد وجل الإسرائيليون أيام موسـى من التعرض للكنعانيين، وغلبهم الجبن، ورفضوا الزحف إلى فلسطين قائلين لموسى:

﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾

(المائدة: ٢٢)

فلما ألح عليهم قالوا مرة أخرى:

﴿لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا﴾

(المائدة: ٢٤)

وعوقب الإسـرائيليون على جبنهم بالتيه في سـيناء أربعين سنة مـات خلالها موسـى، ثم خلفه يوشـع الـذي قاد بني إسـرائيل إلى فلسـطين منتصرًا على الكنعانيين، وبانيًا حكمًا دينيًا باسم التوراة بعد هزيمة العرب!

بيـد أن اليهود لم يلبثـوا طويلا حتى نجمت بينهـم علل خلقية

واجتماعية بالغة السوء، زادوا بها شرًا على من كان قبلهم! وقد حكوا عن أنفسهم، وحكى القرآن عنهم ما يستحق التأمل، فقد اقترفوا رذائل جعلت القدر يحكم بطردهم من فلسطين شر طردة، وبدا أن السلطة في يدهم تعين على الافتراء والاعتداء إلى حد بعيد، فليسوا لها بأهل! بل ينبغي تجريدهم منها!

وكانت فلسطين -حتى بعد قدوم اليهود- مليئة بأجناس أخرى، وكان المسلك المستحب لبني إسرائيل تحقير هذه الأجناس والنيل منها بأسلوب غريب! فقد زعموا أن (البنعميين) من أصل لا يمكن أبدًا أن يرتفع. كيف؟ قالوا: إنهم سلالة (لوط) لما سكر وزنى بابنته! وكتبوا ذلك في سفر التكوين!!

والقصة يقينًا مكذوبة، فأنبياء الله لا يسكرون ولا يزنون!!

ثم جاءوا إلى الكنعانيين العرب ووصفوهم بأنهم كلاب! وقد امتد هذا الوصف حتى ذكر في العهد الجديد، فقد لقيت امرأة كنعانية عيسى وهو يدعو في بيت المقدس، وصاحت به: يا سيد يا ابن داود، بنتي مريضة جدًا.

وطلبت منه شفاءها!

فقال لها: اذهبي يا امرأة فإن طعام البنين لا يرمى للكلاب. يعني بالبنين: بني إسرائيل، وبالكلاب: الكنعانيين.

فقالت المحزونة: والكلاب أيضًا تأكل تحت أقدام السادة! فشفى لها ابنتها بعد هذه الضراعة الذليلة!

ونحن نجزم بأن الإنسان الرقيق الرحيم عيسى ابن مريم يستحيل أن يسلك هذا المسلك، أو يرسل هذه الشتائم! لكنهم اليهود الذين تخصصوا في تجريح الأنبياء وإهانة الشعوب! ومن ثم نفهم قول القرآن فيهم:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾

(آل عمران : ٢٢)

أيكفي في معاقبة بني إسرائيل أن يطردوا من فلسطين ؟

لا . . إن الله عزلهم نهائيًا عن القيادة الدينية التي كانت لهم، وحرمهم من الوحي وشرف إبلاغه، واصطفى الأمة العربية، لتقوم بهذه الأمانة، وكانت ليلة الإسراء والمعراج التصديق الحاسم لهذا التحول . . فقد انتقلت الرسالة من بني إسرائيل إلى بني إسماعيل، وأصبحت الأمة العربية لا العبرية هي الوارثة لهدايات السماء !

ونهض الإسلام بالعرب نهضة رائعة، وجعل منهم حَمَلة حضارة زاهية، وفوجئ العالم بالأمة التي لم تعرف إلا رعي الغنم ونقل السلع، تتلو من كتابها أصح العقائد وأحكم الشرائع وأشرف التقاليد . .

كان دريد بن الصمة يصف نفسه وقومه وعلاقة العرب بعضهم ببعض فيقول :

يُغار علينا واترين فيشتفى بنا إن أُصبنا أو نغير على وتر
قسمنا بذاك الدهر شطرين بيننا فما ينقضي إلا ونحن على شطر

وها هم العرب بالإسلام يعلمون الناس السماحة والأخوة والتعاون على البر والتقوى حتى قال (غُوستاف لوبون) : إن العالم لم يعرف فاتحا أرحم من العرب !

وكان دخول المسلمين بيت المقدس أيام عمر بن الخطاب آية من آيات التواضع لله والبر بالناس.

ثم كان دخولهم بيت المقدس أيام صلاح الدين آية من آيات السماحة والعفو والمرحمة.

أما الأمة العبرية فقد خطت لنفسها طريقا آخر، لقد هبت على

اليهــود عاصفةُ غضب بعثرتهم في أرجاء الأرض، فتوزعتهم المدائن والقرى في المشارق والمغارب.

بيــد أنهم حيــث ذهبــوا كان لهم فكــر واحد ومنهــج ملحوظ، يزعمــون أنهم شــعب الله المختــار، ومع هــذا الزعم فإنهم نســبوا إلى الله ما لا يليق بجلاله، ونســبوا إلى رســله ما لا يليق بشــرفهم، واستباحوا لأنفسهم الربا وأكل مال الناس بالباطل.

وتقوقعــوا فــي حاراتهم يحلمون بالعودة إلــى الأرض التي طردوا منها بسوء خلقهم مع الله والناس.

والغريب أنهم جعلوا آمالهم هذه وحي يتلى، وأودعوها صحائف كتبهم وكأن الله هو الذي أنزلها عليهم!! ...

وعرضت لهم مــآس في أنحاء أوروبا كادت تنتهي بإبادتهم حتى قال نفر من المؤرخين: لولا ظهور الإسلام لفني اليهود! لقد وجدوا في أرضه الفسيحة وسماحته الممتدة ما أبقى حياتهم!!

ومن المؤرخين من يرى اليهود مســئولين عما نزل بهم من آلام، فأثرَتُهم الشــديدة، وشرههم في حب المال، وقلة اكتراثهم بقضايا الشــعوب التي عاشوا بين ظهرانيها، كل ذلك جعل القلوب تنطوي على بغضهم، وقد كان (هتلر) الحلقة الأخيرة في سلسلة طويلة من الحكام الذين أذلوهم في طول أوروبا وعرضها.

ومــرت الســنون ثقيلة طويلــة، وظهرت الخلائق المســتورة، أو نبتت ونضجت البذور الكامنة!

كان المســلمون يغطون في نوم عميق، وكانت الدنيا من حولهم تتحرك بحقد مشبوب وتطالب بثارات قديمة.

كان يحلــو للمســلمين أن يتحدثــوا عــن الرحلــة الجويــة بيــن المســجد الحرام والمســجد الأقصى وســدرة المنتهى! ولا بأس أن

يقولوا شعرًا ونثرًا ! أما الدرس الواعي للأمم التي توارثت فلسطين، وأسرار ازدهارها واندثارها فقلما يفكرون في ذلك، وربما لا يخطر لهم ببال أن هذه الأمم تفكر في العودة، وتحسن استغلال الفرص.

فلما جاء العصر الحديث انكشف الغطاء عن مفارقات مذهلة. انكشف عن تعصب يهودي شديد النبض، وعن تأييد حارٍّ له من رجال الكنيسة وأغلب الساسة. أما العرب فقد قيل لهم: احلموا بإنسانية عامة متجردة عن الهوى. نؤازركم في المحافل الدولية. ونعدل بينكم وبين خصومكم ! !

واستكان النوام للأحلام فما صحوا إلا على المذابح تحصدهم رجالاً ونساء، والتسميم يجتاح الطلاب والطالبات، والغيوم تسد الآفاق كلها أمام مستقبل معقول.

ما الذي حدث ؟

ندع الجواب لغيرنا !

ندعه لخصومنا ونتدبر ما يقولون..

كتب (حاييم وايزمان) في مذكراته يقول لقومه: تحسبون أن لورد (بلفور) كان يحابينا عندما منحنا الوعد بإنشاء وطن قومي لنا في فلسطين؟ كلا، إن الرجل كان يستجيب لعاطفة دينية يتجاوب بها مع تعاليم العهد القديم ! !

وندع (وايزمان وبلفور) ونتدبر تصريحات مستر (كارتر) ومن بعده !

إنهم جميعا يتحدثون مع (بيجن) عن أرض الميعاد، وعن نبوءات التوراة والحدود التي رسمتها !

إن المشاعر الدينية الغائرة في العقل الباطن والظاهر، هي التي جعلت جنرال (جيرو) يقول في دمشق أمام قبر صلاح الدين: ها نحن قد عدنا يا صلاح الدين !

وهي نفسها التي جعلت مارشال (اللنبي) يدخل القدس في الحرب العالمية الأولى ويقول: الآن انتهت الحروب الصليبية.

يظهر أن العالم كله شديد الإحساس بعقائده وآماله الدينية إلا قومنا وحدهم، فإنهم يتذاكرون بينهم أن الدين رجعية!!

إن قضية بيت المقدس وفلسطين منذ فجر التاريخ إلى قيام الساعة قضية دينية عند أصحاب الرسالات السماوية جميعًا، فكيف يتجرأ البعض على جعلها قضية قومية أو اقتصادية؟

المسلمون يرون المسجد الأقصى يذكر في سياق واحد مع المسجد الحرام والمسجد النبوي، ويرون الدفاع عنه جزءا من الإيمان، ويعترضون باسم الله ورسوله جهود اليهود لهدمه وإقامة الهيكل فوقه! ويعدون هذه الجهود جريمة ضد الإسلام والألف مليون مسلم الذين يعتنقونه! فكيف يُتجاهل هذا؟

والنصارى يرون بيت المقدس قبلتهم، وقد جعلوا مفاتيح كنيسة القيامة بأيدي المسلمين، لأنهم أمناء عليها، وحماة لها، ولرفع التنازع الطائفي بينهم على حيازتها!

واليهود يرون أن هذه الأرض منحها الله إبراهيم الخليل وذريته من بعده وزعموا أنهم هم الذرية المعنية! وأن طردهم منها لعصيانهم وقتلهم الأنبياء لا يمنع من العودة إليها وطرد العرب منها!

فإذا كان الدين وراء كل دعوى، فكيف جاء من أسموا أنفسهم العروبيين، وجردوا العرب من ولائهم الإسلامي، وأغروهم بجعل القضية صراعًا جنسيًا أو نزاعًا (إمبرياليًا) وغير ذلك من الأوصاف المكذوبة؟

وعندما يفقد صاحب البيت عاطفته الدينية ويهجم اللص على البيت بهذه العاطفة المهتاجة فماذا تكون النتيجة؟

إن اليهــود اغتصبــوا نصــف مســجد الخليــل، ويتآمــرون على اغتصاب بقيته، والأخبار تترى وأنا أكتب هذه الســطور إن مســاجد شتى في يافا وعكا نسفت، وإن ترويع الطلاب العرب في مدارسهم بمحــاولات التســميم مســتمر حتى يتــرك العرب الضفــة الغربية، وقطاع غزة، أو كما يعبر اليهود بـ(هوذا أو السامرة) إحياء لعناوين التوراة!

إنني أتســاءل: ماذا وراء تجريد فلســطين من صبغتها الإسلامية إلا الضياع؟

نحن نحتفي بالبقعة التي انتهى إليها الإسراء، وبدأ منها المعراج، ونريد أن يسأل العرب أنفسهم: لماذا لم يكن المعراج من المسجد الحرام إلى سدرة المنتهى مباشرة؟ إن الإجابة تُعرَف من الآيات التي أعقبت قصة الإســراء في ســورتها المباركة، كما تعرف من دراســة التاريخ القديم والوسيط والحديث!

فــي هــذه الأرض قامت رســالات وانتهــت، وفيهــا نهضت دول وتلاشت. ثم ورث المسلمون بيت المقدس باسم الله.

ولــو أنك قرأت أحوال أمتنا أواخر القــرن الخامس وأوائل القرن السادس الهجريين لظننت أنك تقرأ أحوال المسلمين في هذه الأيام العجاف!

إن الصليبيين القدامى تقدموا في فراغ.

كانت الفرقة بين العرب والمنافســة على الســلطة هي الأســلحة التي هزمنا بها أعداؤنا، ولو اشتبك المسلمون مع الهاجمين في أية معركة جادة ما سقطت فلسطين..

وكأن التاريــخ يعيــد نفســه، إن الصهيونيين تقدمــوا في الفراغ نفسه!

أعانتهم الفرقة، والشهوات المطاعة، والعقائد المنحلة، والأنانية الطاغية، فكسبوا معركتهم بأيدينا.

أريد -كلما استقبلنا ذكرى الإسراء- أن نتجاوز الهامش إلى الصميم.. أن نترك السرد السطحي للقضية.

أن نعمق النظر في الأسباب التي من أجلها كان الإسراء.. ولأجلها قامت للعرب دولة تحمل الرسالة الإسلامية، ونضع الموازين القسط بين الناس.

٨٤- لماذا كانت قبلة العالم في أرضنا؟

قبل بضعة أسابيع من معركة بدر وقع حدث دلالته العميقة في صلة المسلمين بأهل الكتاب فقد كان بيت المقدس القبلة التي يتجه إليها أصحاب الأديان السماوية جميعًا.

ثم صدر الأمر إلى المسلمين أن يتحولوا من بيت المقدس إلى مكة المكرمة!

ما سر هذا التحول؟

الواقع أن أهل الكتاب ما كانوا سعداء بالدين الجديد! ولا فهموا من وحدة القبلة أن قرابةً مشتركة تربطهم بأتباعه!

الذي حدث أنهم ضاقوا أشد الضيق بالنبي العربي، وعدوه منافسًا محذورًا كأن الأمر صراع على مغنم عاجل، أو مأرب قريب!

ولو كان أهل الكتاب مخلصين لأديانهم لكان لهم موقف آخر، فإن العرب كانوا عُبَّاد أصنام! حتى عرفهم محمد بالإله الواحد، وكانوا يعيشون ليومهم حتى أقنعهم بالعمل لليوم الآخر، وكانوا لا يدرون شيئًا عن نبوة سبقت حتى حدثهم القرآن عن موسى وعيسى وغيرهما من المرسلين!

فلم الضيق بهذه الرسالة ومخاصمة صاحبها؟

بيد أن الأمر تجاوز الخصومة المحتملة إلى ضرب من اللدد يثير الاشمئزاز تدبر قوله تعالى:

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ

ٱلۡحَقُّۖ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ (البقرة: ١٠٩)

وإذا كانت للمسلمين مساجد تنبعث من منابرها صيحات التوحيد وتستقبل ساحاتها الركع السجود، فإن أهل الكتاب تواصوا بصرف الناس عن هذه المساجد وتآمروا على تهديمها

﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ ﴾

(البقرة: ١١٤)

فلم يبق بعدئذ مساغ لمشاركة هؤلاء الحاقدين في قبلتهم، وانبعثت في نفس الرسول الكريم الرغبة في الاتجاه إلى القبلة الأولى، إلى الكعبة التي بناها جده الأكبر إبراهيم الخليل، ولكنه لا يستطيع ذلك إلا بإذن من الله، فلينتظر، وليؤمل!

ثم جاء -على تلهف وشوق- الأمر الإلهي

﴿ قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ ﴾

(البقرة: ١٤٤)

فاتجه المسلمون إلى الكعبة المشرفة بعد قرابة سبعة عشر شهرًا من الصلاة إلى بيت المقدس.

كانت هذه المدة كافية لفضح ضغائن اليهود، وأثرتهم المفرطة، وظنهم أن الدين مؤسسة احتكارية يديرها حكماء صهيون لمصلحة جنس من الأجناس، إنهم لا يفهمون ولا يريدون أن يفهموا أن الدين علاقة سمحة رحبة بين الناس ورب الناس.

وقد بدا لي من تجارب كثيرة أن المتاجرين بالحق قد يكونون

شـرًا من المخدوعيـن بالباطل، وأن العـرب الأميين كانـوا -بنقاء سـرائرهم- أصلح للحياة والأحيـاء من أهل الكتاب المسـتكبرين الشرهين.

كان أولئك العرب يعتزون بكعبتهم، ويرغبون طوال عمرهم في اسـتقبالها، وهم لم ينسـوا أن الله حماها عندما أراد نصارى الحبشة هدمها! وأن قوى السـماء هي التي تصـدت للمغيرين لما عجز أهل الأرض عن الدفاع، فإذا الجيش المعتدي يلقى

﴿ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾

(الفيل: ٣ - ٥)

مـع مـا كان للمسـجد الحرام مـن هـذه المكانة الوطيـدة، فإن الصحابة قبلوا عن طيب خاطر ترك اسـتقباله لما هاجروا، ولبوا أمر الله باستقبال بيت المقدس!

كان امتحانًا صعبًا غير أنهم نجحوا فيه:

﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ﴾

(البقرة: ١٤٣)

وعندمـا يحتدم النقاش حول القبلة التي يتجه الناس إليها، يذكر الإسـلام حقائق رفيعة، يلقيها في مسامع كل من ينتسبون إلى دين! حقائق لا يقررها إلا الإسـلام وحده، إنه يتساءل: ما هذا اللغط حول الاتجاه إلى شمال أو جنوب؟

إن الكمـال البشـري لا يصنعه اسـتقبال مكان هنـا أو مكان هناك! الكمال المنشود عمل حقيقي داخل النفس الإنسانية تزكو به وتسمو.

العظمة الإنسانية، هي اليقين الراسخ والاستمساك بالله -وإن هاجت العواصف- وبذل المعروف وإجابة الملهوف، ومساندة الضعفاء وإيتاء المحرومين!

وهي الثبات على المبدأ وإن كثرت المغريات، والمضي على الجهاد وإن فدحت المغارم!

إن اتجاه المسلمين إلى المسجد الحرام في صلواتهم حق لا ريب فيه، وهي قضية تنظيمية سنشرح بعد قليل أبعادها، بيد أن ذلك لا يعني نسيان الحقيقة في الوصول إلى الكمال الإنساني والرضوان الإلهي، وتدبر قوله تبارك اسمه:

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾

(البقرة: ١٧٧)

إن اليهود يلتمسون الشرف من الانتساب إلى نبي الله يعقوب! والأب العظيم لا يرفع شأن بنيه إذا كانت أعمالهم هابطة! وهم يرتبطون بالقدس والأرض المقدسة، والأرض لا تقدس أحدًا، إنما يتزكى المرء بالهدى التقى والعفاف والعدالة!

والخلاف بين الناس باق إلى قيام الساعة، إنه جزء من طبيعة الحياة، وهو بعض الحكمة في خلق الناس!

لكن الخلاف مهما اتسمت شقته لا يجوز أن يكون مثار عدوان وتظالم، ولا يجوز أن يجعل الحيف حقًا ومن ثم قال الله لنبيه:

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

(البقرة: ١٤٥)

والجملة الأخيرة في الآية الكريمة تشير إلى خصائص أمتنا، وإلى الرسالة التي كلفت بحملها إلى آخر الدهر.

إن العرب عندما يحملون للناس حضارة فهذه تنفرد بأنها موصولة بالسماء، حضارة تعرف الله، وتلتزم هداه، وترفض الفلسفات المادية، والرغبات المجنونة في عبادة الحياة ونسيان ما بعدها.

وقد شاء الله أن يذكِّر العرب بوظيفتهم الدولية، عندما جعل قبلة العالمين في أرضهم وعندما طالب البشر في كل مكان أن يولوا وجوهم شطر المسجد الحرام!

فما معنى ذلك؟

إذا قيل: إن موسكو قبلة الشيوعيين في العالم، فليس معنى ذلك اتجاه اليساريين إلى جدار في (الكرملين)! بل المعنى أنهم يستقون أفكارهم ويتلقون توجيهاتهم من هناك!

والواقع أن القرآن الكريم في سياق تحديده للقبلة قال للعرب في جلاء:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ ﴾

(البقرة: ١٤٣)

والآيــة توضح الوظيفــة التي اختارها القدر لأمتنــا ، فإن الله اختار محمدًا ليحمل أمانات الوحي ، وليكون بسيرته وسنته أسوة حسنة ! وقد تلقى العرب ذلــك منه ، ليعلِّموا الناس كما تعلموا ، وليهدوهم كما اهتدوا ، أو ليكونوا أســاتذة للعالم كما كان محمد أستاذًا لهم ! تلك وظيفتهم التي رفعهم الله إليها ، والتي لا بد من حسابهم عليها .

والشهادة على الناس منزلة فوق التبليغ العادي ! قد يكون المرء شــاهدًا فــي قضيــة لا علاقة لــه بوقائعهــا ، كل دوره فيهــا أنه يقول الحــق ، فهل هــذا دور الأمة العربية فــي تاريخ البشــرية ؟ كلا ، ربما تحول الشــاهد إلى متهم إذا تبين من التحقيق أن له أصابع في وقوع الجريمة ! !

والعرب منذ حملوا رسالة الإسلام وجب عليهم أن يستنيروا بها وأن يرفعــوا منارها ، وأن يســتطبوا بأدويتها ، ويعالجــوا علل العالم بدوائها ، فمسئوليتهم مضاعفة . الرسول أمام الله يشهد بأنه علمهم من جهالة ، وأقامهم من عوج ، وهم أمام الله كذلك مطالبون بالشهادة على ســكان الأرض ، إنهم بلغوهم الوحي الأعلى وقدموا من أنفسهم نماذج عمليــة للتقوى والإصلاح والإنصاف ! تــرى ، هل قام العرب بهذه الأمانات ؟

إن ربــاط العروبة بالإســلام وثيــق ، وهذا الرباط وحــده هو الذي يجعل العرب أمة قائدة رائدة فإذا وهت صلتها به ، فهي تخون أساس وجودهــا ، وهي ســتتحول حتما من رأس إلى ذنــب ! أو من أمة تدفع غيرهــا نحــو الخير ، إلى أمــة يدحرجهــا الآخرون إلى الشــر أو إلى الهاوية !

وقــد تأكد هــذا المعنى مرة أخرى في ســياق تحويــل القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام وذلك في قوله تعالى :

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾

(البقرة: ١٥٠)

أي حتى تنقطع حجج العرب الحارصين على كعبتهم، الضائقين بالاتجاه السابق إلى بيت المقدس! أما أهل العناد والمتشبثون بالجاهلية الأولى، فلا تخافوهم، فأمرهم إلى إدبار ونارهم إلى رماد:

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

(البقرة: ١٥٠)

أي إن الله باختياره المسجد الحرام قبلة لكل مصل في الدنيا، يضاعف على العرب منته، ويتم عليهم نعمته. وقد بدا الإنعام عليهم بانبعاث الرسول منهم:

﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾

(البقرة: ١٥١)

والمعنى أن العرب بهذا الدين أضحى لهم تاريخ جديد، وافتتحوا به صفحة مجد باذخ ما كان لهم به عهد من قبل، ذلك أنهم يتلون آيات الحق، ويمهدون طريق التربية الفاضلة، ويخطون معلم الحكمة والرشد، فليعرفوا لله حقه وليقدروه قدره:

﴿ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾

(البقرة: ١٥٢)

وهكـذا يخاطـب الله العـرب ويشـرح لهم مـا أسـدى إليهم من جميل ! فهل نذكر ونشكر ؟

والأنبياء شهود على أممهم بالبلاغ المبين ، وقد كان رسولنا ﷺ وهو يخاطـب الناس في حجة الوداع يقول : اللهم قد بلغت . . اللهم فاشهد !

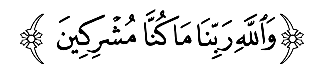
وهناك قبل شـهادة الأنبيـاء مواثيق الفطرة التـي أخذها الله على أبنـاء آدم . إن الله أودع فـي كل ضميـر صوتًا يذكر بـالله ويدفع إلى صراطه المسـتقيم ، ويقاوم التقاليد المنحرفـة والأصوات الزائفة ، وما من إنسان إلا هو مسئول عن هذا الميثاق

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾

(الأعراف : ١٧٢، ١٧٣)

ويتضـح مـن ذلك أن العـدل الإلهي يسـتظهر علـى كل مخطئ بشـاهدين مـن العقل والنقـل ! ومع ذلك ، فإن ناسًـا يوم الحسـاب سيحاولون بالكذب الإفلات من مصيرهم !

إنهم مشركون ورغم ذلك يقولون :


﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾

(الأنعام : ٢٣)

إنهم دجالون مرنوا على الاحتيال والمخادعة في الدنيا يحاولون في الآخرة أن يقوموا بالدور القديم

﴿ يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴾

(المجادلة: ١٨)

وهيهات أن يجدي هذا التملص مهما حلف صاحبه!

ولما كان محمد ﷺ شهيدًا على العرب فسيجاء به يوم القيامة وبالكتاب القيم الجامع الذي بلغه، وسيرى عندئذ من وفى ومن غدر! بل من آمن ومن كفر! قال الله سبحانه:

﴿ وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴾

(النحل: ٨٩)

إنني أحببت أن أشرح هذه القضية؛ لأن العرب من أمد قريب أو بعيد شرعوا ينسون أو يتناسون رسالتهم! بل بدا لهم أن يستقيلوا من الوظيفة الشريفة التي آثرهم الله بها أو اصطفاهم لها.

وسمعنا من يقول في جهل فاضح: إن العروبة شيء، والإسلام شيء آخر! وإن العروبة يمكن أن تشق طريقها بغير دين إلى مستقبل مكين!

وقد استجاب نفر من الأغرار لهذه الفرية، فإذا الأمة المسكينة تتراجع في كل ميدان، وتلاحقها الهزائم الشائنة في كل أفق، ولولا بقايا إيمان مبثوثة هنا وهناك لحل بها خزي الأبد، ولكنها تقاوم اليوم ببأس شديد معتمدة على مواريث الإسلام وحده.

هل للعرب في قديم الزمان وحديثه رسالة أخرى غير الإسلام يمكن أن يؤدوها للعالم؟

إن لمحمد كتابًا وسنة قامت عليهما دولة، وأينعت حضارة! وتصدرت قافلة البشرية أمة تعتز بها وتبني عليها، فماذا لغيره في الأولين والآخرين؟ وما قدر العرب من غير محمد والإسلام؟

قال شخصٌ غِرّ: وهل ضروري أن تكون لأمة ما رسالة سماوية حتى تقتعد مكانة مرموقة في العالم؟ ما أكثر الشعوب التي استراحت واستقرت برسالات أرضية!

قلت: هذا الكلام قرة عين الاستعمار والصهيونية! إنهما لا يريدان أكثر من تجريد المسلمين من عقائدهم وتاريخهم، حتى يقفوا أمام أعدائهم عزلًا من كل سلاح فعال.

وعندما يفقد عرب فلسطين أساسهم الديني أمام أتباع التوراة فستضيع فلسطين!

وعندما يزهد غيرهم في معتقداته الإسلامية فسينطلق التبشير العالمي دون عائق، وتكسب الصليبية جولتها الجديدة.

لا، بل إن الوثنية التي ذبحت المسلمين في (آسام) ستقطع شوطًا أوسع في الإجهاز على مبدأ التوحيد!

إن تحقير الثقافة الإسلامية وتوهين أركانها لا بد أن ينتهي بهذه النتائج!

٨٥- هل من تكريم المرأة إباحة التعدد والطلاق وجعلها نصف الرجل في الميراث والشهادة؟

في قضية تعدد الزوجات أريد أن أسأل أولًا: هل الإسلام مبتدع التعدد مخالفًا بذلك الأديان التي سبقته؟ إن الأديان كلها، وثنية أو سماوية، أباحت التعدد.

فلماذا يسأل الإسلام عنه ويؤاخذ به؟

ليس في العهد القديم حظر على تعدد الزوجات، وقد جمع سليمان الحكيم صاحب نشيد الإنشاد العامر بالغزل- ألف امرأة في بيته بين حرائر وإماء!

وليس في الأناجيل التي كتبها تلامذة عيسى عليه السلام حظر على التعدد!

إن التحريم الذي وقع بعد ذلك كان تشريعًا مدنيًا لا دينيا، أو كان كنسيًا يعتمد على الاجتهاد لا على النص!

قد يقال: فليسع الإسلام ما وسع الأديان قبله، وليحرم التعدد!!

وهنا لا أجد مناصًا من توجيه سؤال آخر؟ هل اكتفى كل رجل، أو أغلب الرجال بما لديهم فلم يتصل أحدهم بأخرى؟ بل أسأل الرجال الذين تظلهم حضارة الغرب في عدة قارات: ألم ينشئوا علاقات متصلة طويلة الأمد أو قصيرته بأعداد كبيرة من النساء الأخريات؟

لماذا يراد قبول المرأة الأخرى خليلة لا حليلة؟ لماذا يرمى ابنها لقيطًا، أو ينشأ زنيمًا، ولا ينسب لأبيه الحقيقي؟

إنني أتهم أولئك الذين يحرمون التعدد بأنهم استهانوا بمقاييس الحل والحرمة، وأنهم اتبعوا أهواءهم بغير هدى من الله، وأنهم- من

الناحية الجنسية- استباحوا الأعراض واجتاحوا الفروج، ويسروا الشذوذ، ومهدوا لمناكر ما عرفت بهذه الوفرة إلا في حضارتهم المادية الموغلة في الإثم!

أيعني ذلك أني أدافع عن تصرفات سيئة ارتكبها المسلمون باسم التعدد؟ كلا، لقد عدَّد من لا يعدل، وهذا مرفوض! بل عدَّد من لا يستطيع الإنفاق على واحدة! وهذا مرفوض!

إن التعدد جائز بشروطه المادية والأدبية فإذا لم تتوافر هذه الشروط فلا تعدد، وحل المشكلات الاجتماعية من هذا النوع يرجع إلى يقظة القلوب وسلامة الأخلاق قبل أن يرجع إلى سطوة القانون، ومكاسب النساء من التعدد- والحالة هذه- ليست أقل من مكاسب الرجال!

أما إباحة التطليق للرجل فأحب أن أضع بين يديك هذه الروايات، قال رجل لعمر بن الخطاب: أريد أن أطلق امرأتي! فقال له عمر: لم؟ قال: لا أحبها! فقال له عمر: أوَكل البيوت بني على الحب؟ فأين التذمم والوفاء؟[٢]

ويشبه هذا ما رواه ابن مردويه أن أبا أيوب أراد طلاق أم أيوب، فاستأذن النبي ﷺ قال أنس: فقال له الرسول: إن طلاق أم أيوب لحوب! أي إثم فكف عن مراده وأمسك امرأته.

وقد روي مثل ذلك من طريق آخر، أراد أبو طلحة أن يطلق أم سليم امرأته، فقال النبي ﷺ: «إن طلاق أم سليم لحوب» فتراجع الرجل عن مراده.

وقد يكون الأصل في هذا الإمساك قوله سبحانه وتعالى:

﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ (النساء: ٣٤)

(٢) التذمم: أن تفعل ما يجنبك الذم، انظر العين. (المجلة)

إن الحياة الزوجية أشـرف من أن تعصف بها أزمة عابرة أو غيمة عارضة، وما بين الزوجين من وشائج لا يرخصه إلا لئيم.

بيـد أن سـياج الأسـرة لا يقيمـه إلا الخلـق الزكي، والأسـر التي يمسـكها القانون هي أسـر على الورق وحسـب، وقد سئم الأوروبيـون هذا الخداع واضطروا إلى الاعتراف بالواقع المرير، فأباحـوا الطلاق فـي انتخابات عامة هزمت وصايا الكنيسـة في الموضوع.

إنني لا أدري كيف يدفع رجال الشـرطة امرأة إلى زوجها أو رجلاً إلى امرأته!

الحل الأمثل هو في قوله تعالى:

﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ﴾

(الطلاق: ٢)

وذلك بعد مراحل من الإنذار والإصلاح مبسوطة في كتب الفقه.

قـد يكـون الطلاق جراحـة لا مفر منها بعد ذهـاب الود وجفاف الحنان وتولد مشاعر أخرى على نحو ما قيل:

إن القـلـوب إذا تـنـافـر ودهـا   مثل الزجاجة كسرها لا يجبر!

وإذا كان الطـلاق حـق الرجل للخلاص من هـذا الوضع، فالخلع حـق المرأة للراحة منه! وليس لأحد أن يكـره المرأة على البقاء في بيت مقتت صاحبه وأحست الضرر بجواره

﴿وَلَا تُمۡسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعۡتَدُواْۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ﴾

(البقرة: ٢٣١)

وعندما تطلب الزوجة الفراق فيجب أن ترد إلى زوجها ما سـاق إليهـا من مال، ومن الحيف أن يدفع الرجل المهر، ويرسـل الهدايا ثم تستولي المرأة على هذا كله وتطلب الانفصال!

ويحزنني أن جل الفقهاء تناسى شريعة الخلع أو أبطل حكمتها، وأن الجماهير لا تعرف شريعة تمتيع المطلقة! وأن طلاق السنة- كما صح عن صاحب الشريعة- لا يطبق! وإنما المألوف المحترم هو طلاق البدعة، فقد أمضيت آثاره كلها بوحشية! وعندما تيقظ فقيه ذكي... إلى أن طلاق البدعة باطل منكور الآثار تعرض لنقد شديد!

ومما يثير الدهشة أن أنصار هذا الفقيه في عصرنا لا يوافقونه على إبطال طلاق البدعة، وإنما يوافقونه على إنكار وقوع المجاز في القرآن الكريم! وهذا من هناته غفر الله له.

واعتقادي أن الفقهاء المسلمين المعاصرين- وهم يحسون المحنة الاجتماعية التي يمر بها المسلمون- سوف يسدون هذه الثغرات، وينتقون من أقوال الأئمة والمجتهدين ما يلم شمل الأسرة، ويقيها عبث العابثين.

ويجيء بعد ذلك عمل المرأة، لتنفق على نفسها! إن الإسلام له منهج آخر غير ما يعرف الآن في الحياة الغربية بشقيها الشيوعي والرأسمالي، المرأة هناك- عند البلوغ- تستقل بنفسها، وتواجه مستقبلها، وتكلف بتحصيل قوتها، والضرب في فجاج الأرض، لتأمين عيشها، وهي تزاحم الرجل في كل ميدان!

ماذا نشأ عن هذا الوضع؟ فقدان أغلب النساء لعفتهن، واستطالة الذئاب في أعراضهن لسبب أو لآخر!

والمجتمعات الأوروبية والأمريكية والاسترالية كادت تطبق على اعتبار الناحية الجنسية حاجة جسد لا علاقة لها بالخلق والدين، وكانت لهذه الفلسفة الحيوانية نتائج رهيبة، والإسلام يرفض هذا الفكر وآثاره كلها، نعم قد تعمل المرأة في ظروف تختارها أو

تختار لها، وبعد توفير ضمانات الصون وحماية الشرف ومرضاة الله تعالى.

أما تكليفها بالكدح لتقتات، ولتوفر مهرًا للرجل المنتظر فلا، ولا، وهنا يوجب الإِسلام نفقتها على أبيها أو أخيها أو ذوي قرابتها، فإِن لم يوجد أحد أُرْصِدَ لها ما يكفيها من بيت مال المسلمين.

وإعانة للرجل على النهوض بهذا العبء جعل حظه في أغلب المواريث ضعف حظ المرأة، وقد يتساويان في حالات كثيرة، كما أمره بأن يدفع هو للمرأة مهرها لا أن تدفع له كما توصي بعض الديانات.

وعلى الرجل أن يَنْصَب ليقوت زوجه وولده، فإِذا عرضت ظروف لتعمل المرأة خارج البيت كان لذلك وزنه الخاص وملابساته المقدورة!

أعتقد أنه ليس من تكريم المرأة تكليفها بالارتزاق في أحوال مقلقة، ولا من تكريمها أن تجمع بين وظيفة ربة بيت، ووظيفة أخرى ترهق أعصابها وتستغرق انتباهها.

وبعض الجهلة يستغل فضل الرجل على المرأة في الميراث ليهينها ويزدري منزلتها، وكم أسيء إلى ديننا من أولئك الجاهلين.

ولنثبت هنا حديثًا يحتاج إلى بيان وفقه، دار على كثير من الألسنة، واستغل بخبث، لتحقير النساء وإلهاب عداوتهن ضد الإِسلام:

روى مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «يا معشر النساء تصدقن، وأكثرن الاستغفار، فإِني رأيتكن أكثر أهل النار».

فقالت امرأة منهن جزلة: وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار؟

فقال: «تُكْثِرْنَ اللعن، وتكفرن العشير! ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلبَ لذي لب منكن»!

قالت: يا رسـول الله، ما نقصان العقل والدين؟ قال: «أما نقصان عقلهـا فشـهادة امرأتين تعدل شـهادة رجل، فهذا نقصـان العقل! وتمكث الليالي لا تصلي، وتفطر في رمضان، فهذا نقصان الدين».

وقبـل أن نحكم علـى ظاهر هـذا الحديث ونشـرح معناه نذكر حديثًا آخر يسـاويه في قوة السـند، ويزيد عليه في تكرار سياقاته، وتعدد رواياته.

هـذا الحديث هو قول رسـول الله ﷺ «اطلعت فـي الجنة فرأيت أكثـر أهلها الفقراء! واطلعـت في النار فرأيت أكثر أهلها النسـاء» وفي رواية أحمد: «... فرأيت أكثر أهلها الأغنياء والنساء».

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم، وهو خمس مئة عام».

وعن أسامة -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «قمت على باب الجنـة فكان عامة من دخلها المسـاكين! وأصحاب الجد (اليسـار والعافيـة) محبوسـون غير أن أصحـاب النار قد أمر بهـم إلى النار، وقمت على باب النار فإذا عامة من دخلها النساء»!

مـاذا تعني ظواهر هذه الأحاديث جميعًـا، وما أثرها المنظور في بناء الأمة الإسلامية؟

إنهـا تعني ترجيـح الفقر على الغنى، والمسـكنة على السـعة، والصعلكة على الثراء والتمكين!

أيمكـن أن تقـوم دولة أو تزدهر حضارة أو يكسـب المسـلمون معركة وهم واقفون عند هذه الظواهر لما روي عن نبيهم؟

إن ذلك مسـتحيل، والحق أن هذه الظواهر غير مرادة أصلًا، وأن معناهـا فوق مسـتوى القاصرين، ولذلك قلنا فـي كتاب آخر: إنه لا سنة بغير فقه!

الزعــم بــأن كل غِنــى رذيلة زعم ســخيف ، فالغنــى المحقور هو المكســوب مــن ســحت ، أو المكنــوز ، لا يســتفيد منــه مجتمــع ، والأغنياء من هذا القبيل أعداء الله وأعداء الشــعوب وإذا ملئوا جهنم فهي مصير عدل .

أمــا تكويــن الثــروات مــن وجه شــريف ، وإيتــاء حــق الله فيها ، وتطويعها لإعلاء الإيمان ، وحماية الثغور فهذا محض الإيمان .

وقد كان العشــرة المبشــرون بالجنة من هــذا الصنف ، ولم يكن فيهــم رجل مقــل ، والفقير الذي آثر القلة من حــلال على الكثرة من باطــل ، أو الذي ملــك بجهده المبذول ولكنه ضحــى بما يملك في سبيل ربه ليس أقل درجة من غيره ، وكونه يسبق غنيا أو يسبقه غني ليس إلينا ، وإنما يبت فيه علام الغيوب .

ثم عندما يكون عامة من دخل النار من النساء فأين يذهب قوله تعالى :

﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ ﴾
(الرعد : ٢٣)

الواقع أن عرض الحديث النبوي دون فقه صالح ، لون من تحريف الكلام عن مواضعه ، ومصاب الإسلام شديد من هذا التصرف ! ونعود إلى حديث النساء ونقصان العقل والدين .

صدْر هذا الحديث يقي الأسـرة الإسلامية شرًا يشيع بين الناس ، جرثومتــه امرأة تحيا على خير رجلهــا ، وتنكر فضله وتجحد حقه ، قــد يخطئ الرجل ، وكل بني آدم خطاء وينبغي أن تتجاوز المرأة هذا الخطأ العارض ، وربما كان الخطأ من وجهة نظرها هي ، ولكنها بدل ذلك تغضب غضبًا طائشا ، وتنسى في ثورتها كل شيء ، وتزعم أنها ما رأت خيرًا قط من زوجها ، وقد تلعن نفســها وحظها وما حدث أو يحدث لها !

أليس من حق النبي ﷺ أن يحذر من هذا المسلك، وأن يذكر لصاحباته أنهن إن أصررن عليه يكن من أهل النار؟ ثم يستطرد الحديث: «ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لب منكن» والعبارة متصلة بالجملة قبلها، فإن الرجل قد يستكين لامرأته، والحق معه، حتى يوفر الهدوء في بيته! ويمنع اللجاجة والخصام! وقد يلغي فكره الصائب من أجل ذلك الهدف، مما قد يدفع بالمرأة المغرورة إلى مزيد من العنت!

وهذه هزيمة ذي اللب كما عبر الحديث أو أولي الألباب كما نرى في مجتمعات كثيرة تنتصر فيها رغبات النساء على عزائم الرجال.

والمرأة- على ضعفها- تحب أن تغلب غيرها وتعرض نفسها! قد تقول وما هذا الضعف؟ والجواب في تكوينها الخِلقي، فإنها تضحى عليلة أو شبه عليلة خلال الدورة الشهرية التي تعتادها، وتؤثر في أعصابها وأفكارها، وقد عذرها الله من أجل ذلك، وأعفاها من بعض الفروض.

إن نفرًا من المتحدثين في الدين شاء أن يفهم من هذا الحديث أمورًا لا علاقة لها به، فصاغ قاعدة كلية نشرها في طول الأمة وعرضها مفادها: (النساء ناقصات عقل ودين)، وسواء كانت (أل) للجنس أو الاستغراق فهذه الكلية الشائعة فاسدة، من ناحيتي العقل والنقل، فقد اكتملت قديمًا وحديثًا نسوة أرضين الله ورسوله وخدمن الدين والأمة خدمات جليلة.

وهذه الكلية المزعومة تناقض الآيات القرآنية التي قررت أن النساء والرجال بعضهم من بعض، وتناقض الأحاديث التي جعلت النساء شقائق الرجال!

وزاد الطين بلة في تأليب المرأة المعاصرة على الإسلام أن البعض فسر نقصان العقل بالحماقة ونقصان الدين بالمعصية، وعد الأنوثة ترادف الخسة والهوان، وهذا التفكير امتداد للجاهلية الأولى، وهو بعض ما يشين النفسية العربية، والإسلام بريء من هذا اللغو.

ونسأل بعد ذلك البيان: أكل امرأة تتصف بالبخل؟ أكل امرأة تتصف بنكران الجميل؟ أكل امرأة تتهم بكفران العشير؟ ما أبعد ذلك عن واقع الحياة.

لكن من المسلمين إلى الآن من يظن الغنى أخطر طريق إلى النار، ومن يظن الأنوثة أسرع شيء إلى جهنم.

ونريد أن نقي ديننا لوثات هؤلاء المفتين الكذبة، وأن ننصف النصوص والأخبار ممن يتهجمون عليها دون وعي.

٨٦- ما موقف الإسلام من المرأة في ضوء الأوضاع السائدة في مجتمعاتنا؟

إنني أسأل أولًا:

هل عوملت المرأة في العالم الإسلامي وفق تعاليم الإسلام؟ ما أظن ذلك وقع إلا لمامًا.

إن الحاكم في مستدركه روى حديثًا موضوعًا حكم العالم الإسلامي أكثر من ألف عام، يقول هذا الحديث: لا تعلموا النساء الكتابة، ولا تسكنوهن الغرف، أي إذا كان البيت مكونًا من طبقات لم يجز إسكان النساء في الطبقات العليا، حسبهن ظهر الأرض أو تحتها إن أمكن!!

وتطبيقًا لهذا الحديث المكذوب لم تفتح مدرسة لتعليم البنات في قرية أو مدينة خلال القرون الماضية وأصبح تثقيف النساء من الفضول، بل من المناكر المحظورة!!

وروى عبد الله بن عمر قول رسول الله ﷺ: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله».

وفي رواية أخرى: ائذنوا للنساء بالليل إلى المساجد! فقال ابنه معترضًا التوجيه النبوي، إذن يتخذنه دغلًا - أي مهربًا لاقتراف المفاسد - والله لنمنعهن.

فوكز عبد الله ابنه في صدره، واشتد عليه غضبه، وقال: أقول: قال رسول الله وتقول: لا. وقاطعه إلى آخر حياته.

والغريب أن العالم الإسلامي لم يكترث لرواية ابن عمر - على صحتها - وتبع رأي الولد.

ويوجد حظر عام على ارتياد النساء للمساجد.

وبعد جهاد سنين طويلة للسماح بصلاة المرأة في المسجد أمكن فتح أقل من ١٠٪ من بيوت الله لإماء الله، أما الكثرة الساحقة من مساجد القرى والمدن فهيهات أن يدخلها النساء.

كنت في دولة الإمارات المتحدة، وشاركت في قضية جديرة بالعرض، نشرتها جريدة الاتحاد على هذا النحو: قال الأستاذ مصطفى شردي: نحن في إحدى أمسيات الثلاثاء بمسجد سعد بن أبي وقاص انتهى المحاضر من حديثه وبدأ التحاور.

سؤال جاء من الشرفة المخصصة للسيدات تقول صاحبة السؤال إنها متزوجة منذ سنوات من رجل له أكثر من زوجة، وإن زوجها لا يسمح لها بزيارة أبيها ورعايته بين الحين والآخر، على الرغم من أن الأب وحيد يحتاج إلى الرعاية والعناية، والشعور ببر الأبناء لآبائهم ينغِّصها، فهل تطيع الزوج وتهمل واجب رعاية الأب، أم تخالف زوجها وتطيع قلبها وتكون بارة بوالدها؟ أثار السؤال الهمس، ثم سكت الجميع انتظارًا لما سيرد به المحاضر وهو عالم فاضل، وكان من الواضح أن السؤال مس أوتارًا في العديد من القلوب، وأعتقد أن قلب المحاضر من بينها.

حمد الرجل الله وأثنى على الرسول الكريم، وتحدث عن التزام، الزوجة بطاعة الزوج، وكيف أن الإسلام شدد على الوفاء والتمسك بهذا الالتزام لصلاح الأسرة وسلامة المجتمع، وطالب الزوجة بأن تضاعف جهدها لإقناع زوجها حتى يسمح لها برعاية أبيها، إلا أنه اختتم إجابته برأي محدد اجتهد فيه فقال: إنه في حال تمسك الزوج بموقفه القاسي الغريب دون مبرر مقبول، فإنه على الزوجة أن تبادر إلى زيارة أبيها ورعايته وتقديم حنانها إليه، لأن النص القرآني بشأن بر الوالدين واضح وقاطع وصريح، ولأن لهذا الزوج بالذات أكثر من

زوجة تخدمه وترعاه إذا غابت عنه واحدة لأداء واجب البر والإحسان تجاه والد عجوز مريض ضعيف أمرها الله بأن ترعاه وتحسن إليه.

انتهى المحاضر من إجابته فاشتد الهمس! وبين الحاضرين عدد كبير من المتزوجين بأكثر من واحدة! وقد رأوا في إجابة المحاضر تحريضًا للزوجات على عدم الالتزام بأوامر الزوج، حتى ولو كانت متعارضة مع المنطق ومتضاربة مع المعقول! وبدأ فريق من الحاضرين يناقشون الرأي بأعصاب توشك على الانفلات! فقالوا: إن رأي المحاضر يتعارض مع تعاليم الإسلام! ولابد من التراجع عنه، لأن طاعة الزوج واجبة قبل أي اعتبار آخر، وتمسك المحاضر برأيه وكادت تهب عاصفة من الاحتجاجات بسبب هذا الرأي، وتتحول إلى مهاترة لا يسمح بها.

المهم أننا انصرفنا من المسجد، وظل السؤال معلقًا بين الآراء التي اختلفت عليه!

كان مطلوبًا من الشيخ المفتي أن يغير فتواه، وأن يحكم بحبس المرأة في البيت ولو مات أبوها! وأيد ذلك الاتجاه أن متفيهقًا ذكر حديثًا معناه أن الله رضي عن زوجة بقيت في بيتها حتى توفي والدها فلم تعده في مرضه الأخير، لأن زوجها كان في سفر فلم يأذن لها بالخروج من البيت!

قلت: هذا حديث مكذوب! واستغربت أن يطلب من امرأة ما باسم الإسلام أن تعق أباها، وتقطع صلتها به، وتدعه يموت مستوحشًا لأن هذا حق رجلها!

وعندما تفقد المسكينة عاطفة البنوة، فماذا يبقى من كيانها الإنساني في بيت الزوجية؟ إنها ستكون أسيرة فحل يملك أمرها وقهرها، وحسب!

وفي الأرياف كان أغلب النساء يفقد ميراثه الشرعي، فتقسم الأرض على الذكور وحدهم، ويقول الإخوة الذين اجتاحوا الأرض: كيف نترك غريبًا ينزل بأرض أبينا؟ ويعنون بالغريب زوج أختهم!

فإذا حدث أن طالبت الأخت بنصيبها الشرعي قاطعها إخوانها إلى الأبد! والأسر الشريفة لها تقليد عجيب - أعني الأسر التي تدعي الانتساب إلى البيت النبوي - فالمرأة تموت عانسًا بائسة إذا لم يجئها الكفء من الأشراف، أما الرجل فله حق الزواج من الإنكليز والأمريكان!

ويظهر أن بنات العم سام أو العم جون لهن شرف يضارع شرفه، أما النساء اللاتي نكبن بالدم الشريف، فلا كفء لهن على المدى البعيد إلا الموت!

وروى البخاري عن الربيع بنت معوذ قالت: كنا نغزو مع النبي ﷺ فنسقي القوم ونخدمهم ونرد الجرحى والقتلى إلى المدينة.

ويبدو أن هذا التقليد كان قصير العمر جدًا، فاستخفى في أيام الحرب والسلم على سواء، وتعتمد المستشفيات في العالم الإسلامي اليوم على الممرضات الأجانب، وإذا كان النساء قد منعن المساجد أفكان يؤذن لهن بالذهاب إلى ميادين القتال؟

ولا أريد أن يفهم غر أني راغب في نقل معالم الحضارة الغربية إلى مجتمعاتنا، فهذه الحضارة تجمع خليطًا من التقاليد الحسنة والتقاليد الرديئة.

وإنما أريد إعمال النصوص المكتوبة أو المفهومة من سيرة الرسول ﷺ، وسلفه الأول، وهذا مسلك يعجز عنه أصحاب الخيال والشذوذ.

لقد رأيت في قضية المرأة أحاديث موضوعة، وأحاديث واهية

صححها الغرض المدخول، وأحاديث صحيحة حرفت عن موضعها.

واستغربت وأنا أقرأ لبعض الفقهاء أن صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في المسجد الحرام أو المسجد النبوي!

وقلت: لو كان الأمر كذلك فلم أشرف الرسول ﷺ على تنظيم صفوفهن في مسجده؟ ولم جعل لهن بابًا خاصًا بهن؟ ولم ذهب إليهن فعلمهن وحثهن على الصدقة، ولم حذر (البعض) أن يحرص على القرب من صفوفهن؟

الواقع أن المرأة أولى بها أن تصلي في البيت إذا كانت مسئولية التغذية أو التربية تفرض عليها ذلك، أما إذا تخففت من هذه الواجبات لسبب أو لآخر فلا يمنعها بشر من الذهاب إلى المسجد ليلًا أو نهارًا.

أي إن صلاة الجماعة ليست مؤكدة في حقها كالرجال، وليس يفيد ذلك فرض حصار قاتل على حياتها العلمية والعبادية، وتحويلها إلى مسخ لا مكان له في دنيا ولا دين، كما انتهت بذلك الأوضاع الاجتماعية في العالم الإسلامي.

عندما فتح النبي ﷺ مكة خرج النساء لمبايعته، وتلقي تعاليم الإسلام منه، ولم يحتبسن في بيوتهن قعودًا عن هذا الغرض، أي إن علاقة المرأة بالحياة العامة كانت قائمة، وكانت من الناحية العملية تسير في خط يحاذي علاقة الرجل، ولا يتطابق معه.

وقبل فتح مكة اهتدت نساء كثيرات إلى الإسلام، ورفضن البقاء مع أزواجهن الكفار فقررن الهجرة إلى المدينة.

وحدث ذلك في وقت كان المسلمون فيه ملزمين برد كل من يلحق بهم من مكة فارًا بدينه ـ تنفيذًا لمعاهدة الحديبية.

ولكن القرآن نزل يستثني النساء من ذلك الحكم فقال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ ﴾

(الممتحنة : ١٠)

وورد أن عمـر بن الخطاب كان في ذلـك الامتحان يُحَلِّف المرأة المهاجـرة : «بالله ما خرجـت رغبة بأرض عن أرض ! وبالله ما خرجت مـن بغض زوج ! وبالله ما خرجت التماس دنيـا ! وبالله ما خرجت إلا حبًا لله ورسوله ؟» .

ماذا ترى في هذا القسم ؟ وفيمن أدته ؟ ألا ترى شخصية مستقلة واضحة الوجهة محترمة المسـلك ، تحارب وتسالم وتقيم أو تسافر وفق ضميرها وتفكيرها ؟

أين هذه الشـخصية التي واثقت الرسول في مكة ، والتي هاجرت إليه في المدينة ، من شخصية المرأة المسلمة في القرون الأخيرة ؟

المرأة التي لا تعرف كتابًا ولا إيمانًا ولا صلاة ولا ثقافة عامة ، بل التي يعتبر من العيب الفاضح أن يُعْرَف لها اسم ، أو يبدو لها شبح ؟ لأنه لا وظيفة لها إلا إعداد الطعام ، وإرضاء البعل ! !

٨٧- ما أبعاد النشاط الاجتماعي للمرأة على ضوء الاجتهاد الفقهي؟

في النشــاط الاجتماعي للمرأة يمكن أن نعرف أبعاد هذا النشاط إذا ذكرنــا أن قاعــدة الأمــر بالمعــروف والنهي عن المنكر تشــمل الرجال والنساء على سواء، وذلك ظاهر قوله تعالى:

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾

(التوبة: ٧١)

إن الأمر والنهي والصلاة والزكاة وطاعة الله ورسوله ليست حكرًا على أحد الجنســين، والزعم بأن المرأة تصلي وتزكي وتسكت في ميدان النصيحة زعم باطل.

والــذي حدث فــي القــرون الأخيرة، في قــرى كثيــرة أن المرأة ســقطت عنهــا هــذه التكاليف كلها، فــلا تصلي أو تزكــي، إلا قبل الوفاة بفترة تطول أو تقصر بحسب الملابسات!

علــى أن حراســة المجتمــع تُنْقَــل من ميــدان النظر إلــى ميدان التطبيق، وهنا تبتعد المســافة بين أقوال الفقهاء في الإمكانات التي تُعطاها المرأة، ويبلغ الاختلاف حد التضاد.

فابــن جريــر الطبري يجيــز للمرأة القضــاء في كل شــيء يجوز للرجل أن يقضي فيه دون استثناء!

ويقول الأحناف ـ كما جاء في البدائع ـ إن الذكورة ليســت شرطًا

لتقلـد منصب القضاء فـي الجملة، لأن المرأة من أهل الشـهادة في الجملة، إلا أنها لا تقضي في الحدود والقصاص، لأنها لا شهادة لها في ذلك، وأهلية القضاء تدور مع أهلية الشهادة!

وهنا نسـأل: مـا قيمة شـهادة المرأة فـي الحـدود والقصاص؟ والجـواب أن جمهور الأئمة يردهـا! جاء عن الزهري رضي الله عنه: مضـت السـنة من رسـول الله والخليفتيـن بعده أنه لا تجوز شـهادة النساء في الحدود والنكاح والطلاق، وفي رواية أخرى: والدماء!

ويرفض ابن حزم هذا الكلام كله! ويجيز شـهادة النسـاء في كل مـا ذكر! ويقول في حديث الزهري: إنه بلية، وإن إسـناده منقطع، وهو من طريق إسماعيل بن عياش - وهو راو ضعيف - عن الحجاج بن أرطاة - وهو هالك - تلك قيمة حديث الزهري عنده.

ويـرى ابن حزم قبول شـهادة المرأة في كل قضيـة بعد مضاعفة النصاب، فيقبل في حد الزنا ثماني نساء بدل أربعة رجال!

والدليل الذي يعتمد عليه ابن حزم هو العموم الظاهر في حديث مسـلم عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «فشهادة امرأتين تعـدل شـهادة رجل» ومـا رواه البخاري عـن أبي سـعيد الخدري أن رسـول الله ﷺ قـال فـي حديث: «أليس شـهادة المـرأة مثل نصف شهادة الرجل؟ قلنا: بلى».

فقطـع رسـول الله بأن شـهادة امرأتيـن تعدل شـهادة رجل، قال ابـن حـزم فوجب ضرورة أنه لا يقبل - حيث يقبل رجل لو شـهد - إلا امرأتان، وهكذا ما زاد.

ويفسر ابن حزم قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ﴾

(النساء :٥٨)

فيقول : هذا متوجه بعمومه إلى الرجل والمرأة والحر والعبد، والدين كله واحد !

لا حيث جاء النص بالفرق بين المرأة والرجل، وبين الحر والعبد، فيستثنى من عموم إجمال الدين !

وقبل ذلك يقول ابن حزم : وجائز أن تلي المرأة الحكم، وهو قول أبي حنيفة، وقد رُوي عن عمر بن الخطاب أنه وَلَّى الشفاء ـ امرأة من قومه ـ السوق.

فإن قيل : قد قال رسول الله ﷺ : «لن يفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة» قلنا : إنما قال رسول الله ﷺ ذلك في الأمر العام الذي هو الخلافة.

برهان ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : «المرأة راعية على مال زوجها وهي مسئولة عن رعيتها» وقد أجاز المالكيون أن تكون وصية ووكيلة ولم يأت نص يمنعها من أن تلي بعض الأمور، والفقهاء متفقون على أن شهادة المرأة مقبولة في المعاملات المالية لقوله تعالى :

﴿وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ (البقرة : ٢٨٢)

وقد نقلت في أحد كتبي كلامًا للأطباء عن اعتلال مزاج المرأة

وبدنهـا عند الدورة الشـهرية وقلـت : لعل ذلك سـر توكيد خبرها بأخرى معها ، والضلال هنا يعني الذهول والشرود .

وأبـادر إلى القول بأني لسـت ظاهريًا ، لكني أتبـع الدليل حيث كان ، وكثيـرًا ما أرفض اجتهادات لابن حـزم ولغيره من أئمة الفقه ؛ لأن وجهات نظر أخرى بدت لي أرجح .

وغايتي خدمة الإسلام بما يناسب المرحلة التي بلغتها الإنسانية كلها في هذا العصر الخطير .

إن تعاليم الإسلام قسمان ؛ قسم مقطوع به ، لا مكان لخلاف فيه . وهذا القسم هو صلب الدين ومعقد أموره ، ولا أثر لاختلاف الأمكنة والأزمنة فيه ، والدعوة عامـةً إنما تكون إليه ، والمفاضلة بيننا وبين غيرنا إنما تكون عليه .

أما القسم الآخر فهو القضايا الظنية والمسائل الخلافية .

إن المجال رحب هنا للأخذ والرد والفعل والترك .

وقـد رفض أولو الألبـاب أن يكون رأي مجتهد مـا بمنزلة الوحي المعصوم في الأخذ به والتعويل عليه .

ومـن ثم يجب ترك الناس أحرارًا في التحول إلى غيره لسـبب أو لآخر .

ولتوضيـح ما أعني أريد ـ وأنا أعرض الإسـلام في بلاد أخرى ـ ألا أغير سلوكًا في هذه البلاد ، يرى بعض فقهائنا ألا جرح فيه .

فـإذا كانـوا يقتنـون الـكلاب فليفعلـوا ؛ فمالك بـن أنس يرى الـكلاب طاهرة الريق والعـرق ، وقد كان للفتيـة المؤمنين من أهل الكهف كلب يلازمهم في أحلك الأوقات .

وإذا كانوا يسـمعون الموسـيقى فليفعلوا ، فالغزالـي وابن حزم

وغيرهما يرون سماعها، ولا مساغ لزجرهم عن أمر ليس لدينا نص قاطع في منعه.

وإذا كانوا يولون النساء بعض المناصب المهمة فليفعلوا، فما أستطيع باسم الإسلام أن أحظر عليهم ذلك، إن الحظر عندنا رأي مجتهد، وليس وحيًا حاسمًا، الشيء الذي أتشبث به فعلًا وتركًا ما انعقد إجماعنا عليه.

أما عرض بعض المذاهب السائدة أو الشاذة، وعرض بعض التقاليد البدوية أو الحضرية على أنها الإسلام، فهذا ظلم للإسلام، وربما كان صدًا عن سبيل الله.

وما أقوله هو ما كان عليه سلفنا الأول، الذي نشر الدين عقائد وعبادات وأخلاقًا وقيمًا جوهرية، وقلما أكترث بالتوافه والأشكال.

وأمر آخر أريد التنبيه إليه... أرى مع سير الزمن أن نغلغل النظر في الاجتهادات الفقهية، لنعرف بدقة نتائجها التطبيقية.

إن الأئمة الأربعة أمضوا طلاق الثلاث ثلاثًا ولو بكلمة واحدة، وغبرت على ذلك قرون، ثم جاء فقهاء آخرون فجعلوا الثلاث واحدة.

وكنت في مصر أرقب أثر الطلاق على كيان الأسرة فوجدت صدوعًا رهيبة في هذا الكيان جعلتني أوثر فقه الفقهاء الذين جعلوا الثلاث واحدة، وأؤيد تحول المحاكم الشرعية عن رأي الأئمة إلى هذا الرأي.

لقد تركوا اجتهادا إلى اجتهاد، ولا حرج، فالعصمة للوحي وليست لبشر ما، وما يقال في قضايا الطلاق يقال في معاملات أخرى تجارية وزراعية، كانت مسرحًا رحبًا لأنصار الفقهاء الأقدمين... إنه

لا قداسة لاجتهاد، والخلود لكتاب الله وسنة رسوله.

وبديه أننا ندع اجتهاد فقيه لاجتهاد مثله، ولا نفتح الباب للأدعياء والدجالين ومن لا قدم لهم في علوم الشريعة.

وبديه أيضا أننا نضاعف الأسوار حول المقطوع به، ونستميت دون أن يمسه أحد، وقضايا المرأة فيها نصوص قطعية، وفيها اجتهادات فقهية اكتنفها الخطأ والصواب ويؤسفني القول بأن الجراءة على النصوص المستيقنة كان سببها تشبث المقلدين البله بأفكار رديئة عن حقوق المرأة العادية والعبادية.

إن الله أمر بالغض من البصر، ووجَّه هذا الأمر للمؤمنين والمؤمنات، فجاء مَنْ أَمَر بمنع النظر أصلًا.

فلا يجوز للمرأة أن تَرى أو تُرى، ولتحقيق ذلك تم حبسها أبدًا في البيت، ونشأ عن ذلك الغلو قتلُ إنسانية المرأة، وإضاعة حقوقها الدينية والمدنية.

ثم جاء من يعالج هذا العوج ينقل تقاليد أوروبا وأمريكا، أي استبدال داء بداء ونحن نأبى غباوة هؤلاء، وانحلال أولئك!! ونريد الأوضاع التي عرفها العهد النبوي والفقه الذكي قبل أن تنشأ هذه الأوضاع.

إن محدثًا جليل القدر كأبي عبد الله البخاري نظر إلى السنن الصحاح ثم استنتج منها دون تكلف ولا تخوف أحكامًا يرفضها اليوم بعض الناس، ففي كتاب المرضى يذكر إمام المحدثين هذا العنوان: «باب عيادة النساء الرجال، وعادت أم الدرداء رجلًا من أهل المسجد من الأنصار... إلخ».

وفي مكان آخر يثبت عنوانًا آخر: «باب غزو النساء وقتالهن مع

الرجال» و «باب غزو المرأة في البحر» . . . إلخ» .

ولو أن امرأة طلبت شيئًا من ذلك في بعض البيئات التي تحترف التدين لضربت حتى الموت، إنهم يقرءون البخاري للبركة لا للفقه.

وقد يبسطون ألسنتهم فينا بالقدح، لأننا أحيينا هذه الحقائق من ديننا السمح. ومع ما ذكرنا فنحن نؤكد أن نشاط المرأة لا يجوز أن يكون على حساب أسرتها، وأن حق زوجها وولدها أسبق من شتى الحقوق الأخرى، وقد قرأت لوزيرة فرنسية وأخرى إنكليزية أن عمل المرأة في بيتها هو رسالتها الأولى، وهذا تفكير جيد فإن منصب «ربة البيت» منصب كبير، وهو في نظري يحتاج إلى مؤهلات رفيعة، وإنشاء الحياة وفق المقررات الإسلامية يتطلب حظوظا مضاعفة من العلم والخبرة، فكيف نوائم بين شتى الأوضاع والغايات؟

ذاك ما يتطلب حسن التفكير والتنسيق.

٨٨- ما نظرة الإسلام إلى الأسرة وما عمل المرأة في بنائها؟

الذيــن خبــروا الحياة في أوروبا وأمريكا يؤكدون أن الأســرة وهــم لا حقيقة لــه، وأنها في أفضل أحوالهــا تقوم بجزء تافه مما يجب أن تقوم به لإنشاء أجيال أزكى وأقوم.

إن البيت خاوٍ على عروشــه أغلب اليوم؛ لأن الذكور والإناث توزعتهــم ميادين العمل والعلم، حتــى الأطفال وكلتهم أمهاتهم إلى دور الحضانة، وانشغل كل امرئ – بعد – بما انشغل به.

وهم يســمعون عن جو الأسرة في بلادنا، وربما حلمت بعض المراهقــات أن تحيا فيه، ولكن الهوان الفكري والنفســي الذي يلف المرأة فيه يصرف الكثيرات خشية التعرض لمآسيه.

وعنــدي أن المثقفــة التي تحيــا خارج بيتها ليســت خيرًا من الجاهلة التي تعيش داخل هذا البيت.

ألا فلنعلــم أنهــا نعمة حقيقيــة أن تمتد الحياة مــن الآباء إلى الأولاد إلــى الأحفاد، وأن تكون الأســرة المؤمنة المســتقرة هي المهاد الوثير لهذا الامتداد.

وليــس الإنتاج الحيواني ســر هذه النعمــة، إن العظمة هنا في توارث العقائد، وانتقال التقاليد الصالحة من جيل إلى جيل.

إن الأســرة هنــا حصن الدين وســياج مبادئــه وعباداته، ودور المرأة وأجرها كدور الرجل وأجره سواء بسواء.

وعن عظمة هذه النعمة يقول الله سبحانه:

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ﴾

(النحل : ٧٢)

إن الرجال هم حمالو الأعباء الثقال في قافلة الحياة السائرة، سواء كانوا أساتذة أو ساسة، أو أُجراء أو باعة، فهم يعودون إلى بيوتهم فقراء إلى المشاعر الدافئة والعون المبذول.

والبيت الذي تكون قاعدته امرأة تنفح هذه المعاني، بيت رفيع القدر، بل هو بيت يحتوي على أثمن الكنوز.

والتقاليد الغربية هزت كيان الأسرة، وهي تقاليد تجتاح العالم. أما التقاليد الإسلامية فالعارفون بها قلة، ونشرها يلقى مقاومة عنيدة خصوصًا من جهلة المتدينين.

من أجل ذلك رأيت لفت النظر إلى أن وظيفة ربة البيت من أشرف الوظائف.

وقد تخرج المرأة من بيتها وراء أعمال مشروعة، بيد أن هذه الأعمال مهما سمت لا يجوز أن تجور على عملها الأول الذي لا يشركها فيه أحد.

روى ابن عبد البر في كتابه (الاستيعاب) أن أسماء بنت يزيد الأنصارية أتت النبي ﷺ فقالت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، أنا وافدة النساء إليك، إن الله -عز وجل- بعثك إلى الرجال والنساء كافة؛ فآمنا بك وبإلهك، إنا معشر النساء محصورات مقصورات؛ قواعد بيوتكم، وحاملات أولادكم، وأنكم معاشر

الرجـال فضلتم علينـا بالجُمَع والجماعات، وعيـادة المرضى، وشـهود الجنائز، والحج، وأفضل من ذلك الجهاد في سـبيل الله -عـز وجل- وإن أحدكـم إذا خرج حاجًا أو معتمـرًا أو مجاهدًا؛ حفظنا لكم أموالكم، وغزلنا لكم أثوابكم، وربينا لكم أولادكم، أفنشارككم في هذا الأجر والخير؟ فالتفت النبي ﷺ إلى أصحابه بوجهه كله ثم قال: «هل سمعتم مسألة امرأة قط أحسن مسألة في دينها من هذه؟» فقالوا: يا رسول الله، ما ظننا أن امرأة تهتدي إلى مثـل هـذا، فالتفت النبي ﷺ إليها وقال: «افهمـي أيتها المرأة، وأفهمي من خلفك من النسـاء، إن حسـن تبعل المرأة لزوجها - يعني قيامها بحقه وإحسانها لعشرته - وطلبها مرضاته واتباعها موافقته، يَعْدِلُ ذلك كله».

علـى أن هناك ميادين للأعمال لابـد أن يكثر فيها النسـاء، أولهـا الميدان الطبـي، فيجب أن تكون هنـاك طبيبات ماهرات فـي كل ناحية من نواحي الطب، والأشـعة، والصيدلة، والولادة والتمريض.

ثم ميدان التدريس لجميع المراحل دنياها وعلياها.

ولا يجوز أن يوصد باب من أبواب المعرفة أمام النسـاء إلا أن يكون لأسباب فنية أو مواصفات خاصة.

عندئذ ينطبق التخصيص على الرجال والنساء جميعًا، فيوجه كل أحد إلى ما يناسب قدرته وخبرته.

إن النسـاء في عالم الكفر الشيوعي يغزون الفضاء فلا يسوغ جر الإسلام إلى منع المرأة من علم تحسنه.

إن القمـاءة الفقهيـة عنـد بعـض المشـتغلين بالعلـم الديني

أحرجت الإسلام كثيرًا، ومكنت خصومه من خناقه، وأذكر وأنا طالب في معهد الإسكندرية - من خمسين سنة - أن الدكتور طه حسين فتح فصلًا للطالبات بكلية الآداب التي كان عميدًا لها.

وحدث هيجان هائل لفتح الجامعة أمام المرأة، وبعد سنين طوال، طوال، فتح الأزهر كلية البنات، لقد وصل متأخرًا كثيرًا.

ما السبب؟ إنها القماءة الفقهية عند بعض المتحدثين باسم الإسلام، ولما مشوا في الطريق كانوا يمشون منهزمين، فقبلوا أمورًا وصورًا لا ريب في أن الإسلام يرفضها.

عندما يدعم الإسلام مكانة المرأة يحصنها من الصور الحيوانية التي أبرزتها فيها الحضارة الحديثة، وجعلتها محورًا لإثارات متصلة تزلزل العفة وتهيج الغريزة.

الدين ينشد الصون ويؤثر الاحتشام، والحضارة الحديثة تنشد التبرج وتدفع إلى الإغراء، ومع ضعف اليقين وحب الحياة العاجلة أخذ السعار الجنسي يشتد ويفرض رغائبه؛ حتى فقد الاتصال الحرام دمامته، وأمسي كأنه حاجة تلبى دون حرج كبير! والدين يرفض أي خلوة بين رجل وامرأة.

إن النساء يحشرن في أعمال كثيرة لا معنى لها، وعندما نقرر أحكام الإسلام وتوجيهاته فإن ابتذال المرأة سيُمنع للفور، وسيكون عملها في أي موقع مضبوطًا بآداب الشرع وحدوده، ذلك ومن الصعب أن تكون المرأة ربة بيت متقنة، وصاحبة منصب منتجة.

إن ذلك قد يقع على ندرة، وأقترح أن تنشأ للنساء وظائف

نصف وقت حتى تستطيع الزوجة القيام الحسن على شئون بيتها وأولادها.

إن تعاون المسلمين والمسلمات لإقامة مدنية مشرقة طاهرة أمر ميسور.

ويحتاج ذلك إلى محو فكرة تحقير المرأة وجعلها متهمة حتى تثبت براءتها، وهي فكرة تسيطر على بعض المتحدثين في الدين وتجعل فتاواهم أقرب إلى اللغو منها إلى الصدق.

إن القول بأن المرأة هي التي أخرجت آدم من الجنة تزوير على الإسلام، والزعم بأنها لاتزال تقوده إلى النار تزوير كذلك.

والتصور الإسلامي كما أثبته القرآن الكريم:

﴿لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٍ﴾ (آل عمران : ١٩٥)

إنني غيور على الأعراض كأشد المتزمتين، ولكن الحفاظ على العرض لا يتم بعقلية السجان.

فالبون بعيد بين تكوين العقل والضمير بالعلم والتقوى وبين حبس الأجساد في قفص من حديد.

والإسلام قاد المرأة إلى المسجد لتسمع الدرس، وتسجد لربها؛ وبذلك صقل روحها وفكرها، وفي المسجد كانت ترى الإمام وربما علقت على ملابسه[٣]. وكانت ترى المدرس وربما ناقشت ما يقول.

أما عقلية السجان فأساسها أن المرأة لا تُرى ولا تَرى، وإذا

(٣) روى البخاري أن امرأة نددت بثوب الإمام لأنه مشقوق.

كان المسـجد مظنـة ذلك فـلا ذهاب إلـى المسـجد، وهذا هو الإسلام في فلسفة السجان.

عندما آثر الناس السيارة والطيارة على الخيل والبغال والحمير لم يكن ذلك تحقيرًا للمواصلات الإسـلامية الرديئة، فما علاقة هذه المواصلات المهجورة بالإسلام؟

وعندمـا يترك النـاس التقاليد التي وضعتها عقلية السـجان، فهم لم يتركوا الإسـلام قـط، وإنما تركوا أسـاليب بعض الناس في الحياة.

والحكم هو كتاب الله وسـنة رسـوله أولًا وآخرًا، والمشـكلة تجيء من طريقة فهم البعض للنصوص والآثار.

روى البخاري ومسـلم وأحمد عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «اطلعـت في الجنة فرأيت أكثر أهلهـا فقراء، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء».

ورواية أحمد في مسـنده: «اطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها الأغنياء والنساء».

إن جماهير من الناس قد اعتمدوا على الشق الأول من الحديث فحاربوا المال، وحقـروا الغنى حتى طلعت القرون الأخيرة على المسلمين وهم صعاليك الأرض.

وجماهيـر أخرى من قصـار النظر والباع عـدّت الأنوثة لعنة، وجعلـت جمهـور أهل النار مـن النسـاء، فَهن حبائل الشـيطان وشباك المعاصي.

وهـذا المنهج في فقه الأمـور لا وزن له، وأصحابه لا علم لهم لا بكتاب ولا سنة.

بين الإفراط والتفريط خط وسط نريد التعرف عليه والتزامه، وهـو خـط لا يتطابـق مـع وضـع المـرأة الإسـلامية فـي أغلب المجتمعات، وكذلك لا يتطابق مع تقاليد الفرنجة التي تسـتمد من وثنية الرومان ومن فلسفة الإغريق.

إن أفلاطـون فـي مدينته (الفاضلة) يجعل المرأة مشـاعًا بين الآخرين، فما تكون إذن المدينة الدنسة!!

علـى أن عقلية السـجان هي الأخرى لا تقيم أمـة راقية الفكر زاكية القلب. وتعاليم الإسـلام الصحيحة هي الأمل في بناء عالم متراحم مصون.

٨٩- يرى البعض أن النقاب فريضة على المرأة، فما قيمة هذا الرأى؟

في العصر الأول وجدنا عمر بن الخطاب – وهو المشهور بغيرته – يولي على سوق المدينة، الشفاء بنت عبد الله المخزومية قضاءَ الحسبة، وهي وظيفة دينية مدنية تتطلب الخبرة والصرامة.

وذكر ابن كثير في كتابه (البداية والنهاية) أن عبد الرحمن بن عوف ظل ثلاثة أيام يستشير النساء فيمن يخلف عمر بعد مقتله – من الستة المرشحين – فلم يبق رجل ولا امرأة يعتد برأيه إلا استشاره.

كانت النساء تستشار! ولم لا وقد استشار النبي أم سلمة عندما تقاعس الناس عن التحلل من عمرة الحديبية.

أما المرأة المسلمة في الأعصر الأخيرة فقد ماتت أدبيًا وراء تقاليد جاهلية ليست من الدين، حتى دهمتنا الحضارة الحديثة بمنازعها المادية ومسالكها الإِباحية، فلم يدر أهل الدين ما يفعلون، لقد طالعت في السيرة النبوية أحاديث تبرز المجتمع الأول في صورة أرحم وأرحب من الصورة التي يرسمها بعض الناس للمجتمع المسلم، وهي صورة قاتمة موحشة.

روى مسلم في صحيحه أن جارًا فارسيًا للنبي ﷺ كان طيب المَرَق، فصنع لرسول الله – طعامًا – ثم جاء يدعوه فقال: وهذه – لعائشة – [أي ألا تدعوها معي] فقال الفارسي: لا، فقال رسول الله ﷺ: لا! أي لا أذهب معك وحدي، فعاد يدعوه. فقال رسول الله ﷺ: وهذه، قال: لا، فقال رسول الله: لا. ثم عاد يدعوه – للمرة

الثالثة – فقال رسول الله : وهذه ! قال الفارسي : نعم . فقاما يتدافعان حتى أتيا منزله[٤] .

وروى البخاري أن أبا أسيد الساعدي دعا النبي ﷺ لعرسه، وأصحابه -رضي الله عنهم- فما صنع لهم طعامًا ولا قربه إليهم إلا امرأته أم أسيد، فقد بلَتْ من الليل تمرات في تور – إناء من حجارة – فلما فرغ النبي ﷺ أماثته له – أي هرسته بيدها – فسقته تتحفه بذلك – وكانت امرأته خادمتهم يومئذ وهي عروس .

وبديه أن ذلك الاختلاط المحدود ، تم في إطار تعاليم الشريعة التي توجب على المرأة الحشمة الكاملة .

والحشمة المطلوبة ستر الجسد كله ما عدا الوجه والكفين .

وقد زعم البعض أن النقاب كان مضروبًا على الوجه ، فلم يبد من المرأة شيء قط .

وهذا زعم مردود فقد قرأت نحو اثني عشر حديثًا في أصح كتب السنة تشير إلى أن النساء كن يكشفن وجوههن وأيديهن أمام النبي ﷺ ، فما أمر واحدة منهن بتغطية شيء من ذلك ، وكذلك كان أصحابه -رضوان الله عليهم- يفعلون .

ومع ذلك فإن ناسا لا فقه لهم ولا تقوى يسلقون السوافر بلسان حاد ، مع أنهن تامات الحشمة ، ويرون انسياقًا مع أفكار غبية ، أن وجه المرأة ويديها وصوتها عورة ! .

مات سعد بن خولة في السنة العاشرة للهجرة وترك امرأته حاملًا ،

---

(٤) ربما كان ذلك قبل نزول آية الحجاب لكن الحجاب خاص بأمهات المؤمنين كما قرر ذلك المحققون، ويبدو أن الفارسي المضيف كان قد أعد الطعام لواحد فقط، ولذلك تحرج من قدوم ضيفين معا ولم يدرِ أن طعام الاثنين يكفي ثلاثة وأن الرسول الكريم يريد إيناس زوجته على مائدة فارسية.

وشـاء الله أن تضع قبل عدة الوفاة - قبل أربعة أشـهر وعشـرة أيام - فتركـت المرأة إحدادها، وتجملت للخُطَّاب - اكتحلت وتخضبت وتهيأت - فلقيها رجل اسـمه أبو السنابل، وأنكر عليها ذلك وقال لها: لعلك تريدين الزواج؟ بعد أربعة أشهر وعشر!.

قالت: فأتيت النبي ﷺ، وذكرت له ما قيل؛ فقال لها: قد حللت حين وضعت. والقصة موجودة في الصحيحين ومسـند أحمد، وهي كقصص وقعت في آخر حياة رسول الله ﷺ، ولا مساغ للزعم بأنها قبل الحجاب.

إن شيئًا آخر غير دين الإسلام يراد فرضه على الأمة الإسلامية.

والذين يريدون ذلك يخضعون لدوافع نفسية لا لشواهد علمية.

والشـيء الوحيد الـذي يذكرونه هو التأسـي بأمهات المؤمنين، ونقـول: لـو كان التأسـي بهـن مطلوبًا في هـذه القضيـة فلم تركه الرسول وصحابته، ولم تركوا الوجوه مكشوفة دون اعتراض؟

والواقع أن تنظيم البيت النبوي خضع لظروف خاصة، وقد صرح القرآن بذلك عندما قال لزوجات الرسول:

﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾

(الأحزاب: ٣٢)

إن تحريم الـزواج منهن بعده ﷺ، ومضاعفة الثواب أو العقاب لهن، تشريع خاص بهن.

ومعروف أن البـر والفاجر كانوا يطرقون باب النبي ﷺ، كيف لا وهو محط الرجال ومقصد الوفود من كل فج؟

وفي بعض البدو جراءة علـى النظر والقول، وبين الأعراب بقايا جاهلية في التطلع إلى النساء، فكان من إعزاز الله لنبيه أن نزلت آية الحجاب في سـورة الأحـزاب تمنع الدخول عليهـن بتة، فلا يراهن

أحد إلا ما استثنى الله -عز وجل- في قوله:

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾

(الأحزاب : ٥٥)

وظاهر أن هـذا التنظيم خاص بأمهات المؤمنين، وأنه بعد نزوله رئـي النسـاء المؤمنات مقاتـلات في حنيـن، ورئين في مناسـبات كثيرة في المسـجد وغيره سافرات الوجوه، فما أنكر عليهن أحد، ومن الناس من يحظر رؤية النسـاء للرجال والرجال للنسـاء مطلقًا. واسـتدل لرأيه بما روي من كراهية الرسـول ﷺ أن يرى نساءه عبد الله بن أم مكتوم، ويرى ابن حجر أن ذلك كان لسـبب خاص، هو أن عبد الله أعمي لا يحسن تعهد ثيابه، وستر بدنه كله.

وهـو تعليـل اضطـر إليـه ابن حجـر لمـا رأى الحديـث يخالف الصحاح.

إن ابـن حجر رد حديـث «أفعميـاوان أنتما» بطريقتـه الخاصة، فتغاضى عن السـند، وتأول المتن، لكـن ابن العربي رفض الحديث سـندًا ومتنًـا! وقـال عن نبهـان، راوي هـذا الحديث إنـه مجهول، ونبهان هذا كان خادمًا لأم سـلمة -رضـي الله عنها- ولم يعرف بين أهل العلم بشيء وحديثه إذا كان قد خالف ما رواه البخاري في رؤية عائشـة للأحباش عند عرضهم الرياضي، فهو قد خالف واقعة أخرى رواها مسلم أيضًا تتصل ببنت عم لابن أم مكتوم أمرها النبي ﷺ أن تقضي عدتها عنده.

روى مسلم عن فاطمة بنت قيس أن زوجها عمرو بن حفص طلقها

البتــة – طلقــة ثالثة – فجاءت رســول الله فذكرت ذلك لــه، فأمرها أن تعتد في بيت «أم شــريك» ثم قال: تلك امرأة يغشــاها أصحابي، اعتدِّي عند ابن أم مكتوم، فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك عنده.

وفــي رواية انتقلي إلى أم شــريك – وهي امــرأة غنية من الأنصار واسعة النفقة في سبيل الله، ينزل عندها الضيفان – فقلت: سأفعل، ثــم بدا لرســول الله أمــر آخر، فقــال: لا تفعلي، إن أم شــريك امرأة كثيــرة الضيفان، فإني أكره أن يســقط خمارك، أو ينكشــف الثوب عن ســاقيك فيــرى القوم منك بعض ما تكرهيــن، ولكن انتقلي إلى ابــن عمك عبد الله بــن أم مكتوم، فإنك إذا وضعــت خمارك لم يرك – الوضع: الإنزال والكشف – فانتقلت إليه، فقالت: فلما انقضت عدتي ســمعت نداء المنادي: الصلاة جامعة فخرجت إلى المسجد، فصليت مع رســول الله، فلما قضى صلاتــه جلس على المنبر فقال: إنــي والله مــا جمعتكم لرغبة ولا لرهبة، ولكــن جمعتكم لأن تميما الداري كان رجلًا نصرانيًا فجاء وبايع وأسلم... إلخ.

قال بعض العلماء:

وجــه دلالة الحديث على أن الوجه ليس بعورة ظاهرة، وذلك لأن النبي ﷺ أقر فاطمة بنت قيس على أن يراها الرجال وعليها الخمار (وهــو غطاء الــرأس) فدل هذا علــى أن الوجه منها ليــس بالواجب ســتره كما تستر رأسها، ولكنه ﷺ خشــي عليها أن يسقط الخمار عنهــا فيظهر منها ما هو محرم بالنص، فأمرها –عليه الســلام– بما هــو الأحوط لها، وهو الانتقــال إلى دار ابن أم مكتــوم الأعمى قال: «وهذه القصة وقعت فى آخر حياته ﷺ لأن فاطمة بنت قيس ذكرت بعــد انقضــاء عدتها أنها ســمعت النبي ﷺ يحــدث بحديث تميم الداري أنه جاء وأســلم، وإسلام تميم كان ســنة تسع للهجرة، فدل

ذلـك على تأخر القصة عن آيـة الحجاب ، فالحديث إذن نص كذلك على أن الوجه ليس بعورة».

في السنة العاشرة للهجرة ، وبعد نزول آية الحجاب بست سنين وقعـت قصة (الخثعمية) وهي امرأة جميلـة الوجه جاءت إلى النبي ﷺ يوم النحر وهو في حجة الوداع تريد أن تسـتفتيه في شأن ما من مناسك الحج.

قـال الـرواة : وكان الفضل بـن العباس رديف النبـي ﷺ ، فلفته جمـال المرأة ، وقد حدَّث الفضل عن نفسـه – كمـا روى أحمد في مسـنده – : «فكنت أنظر إليها ، فنظر النبي ﷺ [إليّ] فقلب وجهي عـن وجهها ، حتى فعل ذلـك ثلاثًا وأنا لا انتهي» ! وأصل هذه القصة ثابت في البخاري ومسلم وأبي داود والترمذي ، كانت المرأة وضيئة الوجه.

لم يروِ أحد عن صاحب الرسالة –صلوات الله عليه– أنه زجرها عن كشف وجهها ، أو اتهمها ببث الفتنة وقلة الحياء ! ولكن الملكيين أكثر من الملك يريدون الاسـتدراك على المشـرع الأعظم ، وإطلاق ألسـنتهم في الناس ، ويريدون طي هذه السـنن الصحاح ، وإبراز آثار منكـرة تفيد أن المرأة تغطي عينًا وتبدي أخرى ! أو تغطي جسـدها كله من الوجه إلى القدم ، فلا يُرى منها شيء ، ولا يسمع لها صوت ، لأن الصوت هو الآخر عورة ! !

إن هذا الغلو أعقب – على امتداد القرون – آثارًا اجتماعية سـيئة قتلت شـخصية المرأة ، وإنسـانيتها وأسـاءت ولا تزال تسـيء إلى الإسلام.

يقـول البعض : لا بـأس أن تضع المرأة نقابًا علـى وجهها اقتداء بنساء الرسول ﷺ .

نقــول : ولا بــأس أيضًا مــن تحريم الــزواج على المــرأة إذا مات زوجها امتدادًا لهذه الأسوة.

إننا نريد التزام خط إســلامي صحيح لا علاقة له بتبرج الغربيات ولا بهوان الشرقيات المسلمات وإهدار آدميتهن.

إن الغضــب لله على العيــن والرأس، أما الغضــب لتقاليد ملصقة بالوحي دخيلة عليه فشيء لا نكترث له، ولا نخشى أصحابه.

قــال لي صديق: إن الطريقة التي تعرض بها قضايا المرأة تخالف تقاليــد قوية ومذاهب مســتقرة، وهذا يســيء إليك وقــد يعوق آراء صالحة شرحتها للناس في ميادين أخرى.

قلــت: نصيحة مقــدورة! وأحب أن أذكر لك مــا عندي لتدرك ما هنالك.

إننــي في هــذه القضية وفــي غيرها أرفض الأحاديــث الموضوعة والواهيــة، ولا أحتــرم التقاليــد التي تبنى عليها، إن العرف الســائد يحكم عليه ولا يحتكم إليه، والأســاس المرعي هو كتاب الله وسنة رسوله.

وإننــي أعــوذ بــالله أن أكون قــد خرجــت عليهمــا، إن المتواتر يحكمني والصحيح يلزمني، أما المرويات الأخرى فلا اكتراث.

ومازلت أذكر أن رئيس جماعة إســلامية كتب مقالًا ضدي تحت عنوان (مدير المساجد يكذِّب رسول الله)!!

وقد اقشــعر جلدي من التهمة، فأنا أحــد الأرقاء لجميل محمد، الشــاعرين بعظمتــه، المتابعين لســيرته، فكيف أكذبــه!! ومحور المقال حديث منكر يقول: إن المرأة لا ترى أحدًا ولا يراها أحد.

والذي يصدق هذا الكلام يجب أن يكذب المتواتر والصحيح في قضايــا المرأة كلها! وهذا ما فعله البعض وأقام بعدئذ تقاليد فرضها

على الدين فرضًا، كيف أحترم هذه التقاليد؟

وهنـاك آثار صحيحة السـند، شـرحها البعض مـن زاوية خاصة، ولهـم ما مالوا إليه من فهم وإن كان معتلًا، وليس لهم إلزام غيرهم، فقوله تعالى:

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾

(النور: ٣١)

فسـره أولئك بـأن الزينة لا تظهر أبدًا، ولا يجـوز إظهارها بتاتًا، وإن الاستثناء هو لما يقع أحيانًا من مجاذبة الريح للنقاب المضروب على الوجه.

إن كشف الوجه كان العادة السائدة، وربما تنقبت بعض النساء، ولم يحدث أن النبي ﷺ اعترض امرأة سـافرة، والسنن شاهد صدق على ذلك، وكان مجتمع الصحابة قائمًا على هذا الوضع دون تكبر.

وتأمـل فيمـا رواه الإمام أحمد فـي مسـنده - والحديث صحيح - قـال: عن أبي أسـماء أنـه دخل على أبي ذر -رضـي الله عنه- وهو بالربذة - أيام عثمان - وعنده امرأة سـوداء مشـعثة ليس عليها أثر المحاسـن ولا الخلوق - الطيب - فقال: ألا تنظرون إلى ما تأمرني هذه السـويداء؟ تأمرني أن آتي العراق، فإذا أتيت العراق مالوا عليّ بدنياهـم، وإن خليلـي ﷺ عهد إلي أن دون جسـر جهنـم طريقًا ذا دحض ومزلة، وإنا إن نأتي عليه وفي أحمالنا اقتدار، أحرى أن ننجو من أن نأتي عليه ونحنٍ مواقير.

يعنـي إذا كنـا خفافا في الدنيا قدرنا علـى النجاة من هذا الطريق الزلق، أما إذا أوقرنا أحمالها وأثقلنا مآربها فسنهوي.

وأبو ذر يشـكو امرأته لبعض صحبه؛ لأنها تشير عليه بالارتحال إلى العراق، وقد رأى الصحب المرأة ووصفوها بما قرأت.

أعـرف أن هناك مـن يرى أن المرأة لا يجوز أن يلمح شـبحها في مـكان ! فما الـذي يجعل هذا الكلام هـو دين محمد ؟ إنـه أمر بالغ السخف أن يرى أحد رأيًا ثم يقول : هذا هو الدين ، لا دين غيره .

نعم ، إنه ليس الدين ، إنما هو وجهة نظر في فقه ما ورد من آثار .

ولا أحارب هذا ، وإنما أضم إلى الموضوع حقيقة أخرى ليست خاصة بالميدان النسائي ، وإنما تعم كل ميدان اختلفت فيه آراء المجتهدين .

هناك خلافات لا يضر بقاؤها إلى قيام السـاعة ، فليقنت من شـاء في صلاة الفجر أو لا يقنت ، إن مذاهب المجتهدين هنا لا تترك آثارًا مهمة في مسيرة المجتمع .

لكـن هناك مـن يـرى أن الخمر والحشـيش والأفيون سـواء في الحرمـة ، وهناك مـن يفاوت بينها ، بل هناك مـن يبيح بعضها ! وقد شـعر أولو الألبـاب أن الأمم التـي تقبل على المخدرات أسـوأ حالاً وأضعف إنتاجًا من الأمم التي تشرب المسكرات .

فهـل يقبل من أتبـاع بعض المذاهب الفقهية القول بأن الإسـلام يبيح كذا من المخدرات فلا تحرموا ما أحل الله ؟

لمـاذا لا يسـكت من اعتنقوا وجهـة نظر ما إذا كانـت الأيام قد كشفت أن وجهة نظرهم سيئة ؟

ولمـاذا يريـدون جعل ما يعتنقون دينا لا يمس ؟ ! ولحسـاب من هذا التعصب والحماس ؟ !

الأمر كذلك في قضايا المرأة ، إن ترددها على المساجد وتزودها بالعلم سنة يساندها التواتر .

ثم نبتت وجهة نظر أخرى ، فحَرُم عليها الذهاب إلى المسـاجد ، وحُظِر عليهن التعلم .

وهذه الوجهة لا تعدو أن تكون فهمًا رديئًا لأثر ما أو اتباعًا أعمى لحديث موضوع .

ثم انهار العالم الإسلامي كله، وأصبح رجاله ونساؤه أمثلة مزرية للتخلـف، فإذا جاء من يعيد الكرامة الأدبية والعقلية للمرأة، ويعيد الأمة إلى معالم سلفها الأول، قيل له: لا!

والدليل: فقه مغشوش! أو نقل مريض، أو رأي امرئ يريد التقدم بين يدي الله ورسوله ليجعل من سلوكه وإدراكه النهج الذي يفرض على الكتاب والسنة لا نهج غيره.

إننا نؤكـد أن النصوص على العين والرأس، وأن الخلاف الفقهي وجهات نظر تخضع للموازنة والترجيح ولا قداسة لإحداها، وأن من حق المسلمين في أي بلد أن يدعوا رأيًا تبين من تطبيقه أنه حطهم في الداخل وأزرى بهم في الخارج.

ولا يوصـف أبدًا ترك هذا الـرأي بأنه ترك للدين، بل إن أغلب ما يشيع بين المسلمين في المجال الإنساني مخالف للدين، وليس وراءه اتباع محترم.

مـن أجل ذلـك كله أرفض عـرض الإسلام في هـذا العصر على أنـه نقـاب، أو أنه رفض لشهادة المرأة وعملها فيما تصلح له، أو رفـض لقيادتها السيارة مثلًا، أو رفض لاضطلاعها بمهـام تطيقها مـع تأكيدي أن عمل المرأة في الأسرة يسبق كل أعمالها الأخرى ويحكمها.

٩٠- يرى البعض أن هناك مملكة في عالم الغيب تتكون من الأقطاب والأوتاد... إلخ، تؤثر في عالم الشهادة، فما قيمة هذا الرأي؟ وما مصادر المعرفة في هذه القضايا وأمثالها؟

العلم الذي يتلقاه الناس ويحظى بينهم بالقبول نوعان: ديني ومدني، ولكل منهما مصادره المحترمة بين أهله، وحدوده التي يقرها خبراؤه، والراسخون فيه، والعلوم المدنية متروكة للاجتهاد المطلق، وأساسها الملاحظة والتجربة والاستقراء، ولما كانت هذه العلوم متصلة بشئون الدنيا، فإن دائرتها ليست وقفاً على جنس من الأجناس أو عصر من الأعصار، والسياق العالمي فيها يجري دون توقف!

وقد أفهمنا المعصوم - صلوات الله عليه - أننا في هذا الضرب من المعرفة الإنسانية أحرار حرية تامة إنه يقول: «أنتم أعلم بأمر دنياكم»[صحيح مسلم].

وليت العقل الإسلامي انطلق في هذا الميدان يبتدع ويكتشف، ويأتي بالعجائب والغرائب كما صنعت عقول أخرى. إنه لا يتقيد في حركته هنا، إلا بالحقائق التي يستقر الناس عليها وينتهون إليها، وليس للوحي الإلهي دخل في بحوثه الكيماوية أو كشوفه الفلكية أو إنتاجه الصناعي... إلخ.

أما العلوم الدينية فأساسها العتيد النقل عن الله ورسوله، وتستمد مكانتها من قيمة النقل، وصحة المعنى ولذلك قال العلماء: الإسناد من الدين، ولولاه لقال مَنْ شاء ما شاء.

ولا يمكن اعتداد شيء ما دينا، إذا كان ضعيف الصلة بالله ورسوله أو منقطعها! وتتفاوت قيم الثبوت تفاوتاً شاسعاً بين

التواتـر المقطوع به، وأخبـار الآحاد المعتلة التي يرفضها البعض أو التي يترخـص البعض في قبولها عندما تتعلـق بفضائل، أو بمناقب الرجال.

علـى أن ما اسـتقر عليه الأمر فـي دوائر التشـريع أن الأحاديث الضعيفة ليسـت مصدراً لحكم شرعي عملي، وأن القضاة والمفتين في حل من التقيد بها دون تكبر ولا تأثيم، فإذا لم يكن ثمت سـند مـن نص ديني قوي أو ضعيف، فلا مجال للزعم بأن لله في هذا الأمر توجيهًا خاصًا.

للنـاس أن يقولـوا ما يقولون من عند أنفسـهم، ولكـن لا مكان لإعطاء كلامهم هالة معينة توهم بأن لهذا الكلام صلة بالدين.

هل لأي إنسان يقوم الليل ويصوم النهار أن يقول لجماهير المسلمين كلامًا لا يعرفونه في مراجع دينهم، ويلزمهم باعتناقه؟ وإلا فهم جهال؟ ذاك ما نرفضه جملة وتفصيلا.

بـل إن الذي نوصي الجماهير به أن يعضوا على كتاب الله وسـنة رسوله، وأن يحكموا ما عداه إلى ما ورد وثبت، فمن أتى لهم بشيء من عند نفسـه ردوا عليه، وليس للخواطر أو الإلهامات أو الرؤى أو الخيالات أي موقع من مصادر التشريع.

لقـد قرر علـم الفلك حقائـق معروفة عن حـركات الأرض حول نفسها وحول الشمس، فإذا جاء رجل يحلف أنه لا خلاف بيننا على أن الله يؤتـي فضله من يشـاء، وأنه فضل بعـض الأنبياء على بعض، وبعض الأمكنة والأزمنة على البعض... إلخ.

لكن من أين تعرف هذه التفضيلات ومداها؟

الذي نقرره قاطعين أن الشارع وحده مصدر هذه المعرفة.

ونحـن من الكتاب والسـنة نعرف أن المؤمـن ينظر بنور الله وقد قال الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ ﴾

(الحديد: ٢٨)

لكن ليس مـن النظر بنور الله أن نفتح أبواب الرجم بالغيب لكل إنسـان مهما اجتهـد في عبادته وتقواه، ليقول فـي دين الله كلامًا لا برهان له به إلا المعاناة الخاصة والكشف الذاتي.

إن قسـم السمعيات من ديننا يشمل الأمور الغيبية التي لا تعرف إلا عن طريق المعصـوم، فالصراط والميزان، وثواب القبر وعقابه، وشـئون الملأ الأعلى، وبعض الأوصاف الإلهية، كل أولئك لا ينفرد العقل بإدراكه، ولا سبيل للبشر إليه إلا بتوقيف من الشارع نفسه.

فإذا جاء امرؤ فزعم أن حملة العرش الثمانية تحتهم سـتة عشـر ملـكا، ثم اثنان وثلاثون ملكا، وهكذا متواليات هندسـية قلنا له: من أين جئت بهذا الكلام؟ ومن حقنا أن نقول له هذا! بل إننا نجرم في حق ديننا إذا لم نقل له: من أين جئت بهذا الكلام؟

فـإذا لم يذكر آية مـن كتاب، ولا أحاديث مقبولة عن رسـول الله وجب أن نمحو هذه الزيادات وأن نرفض تلك الإضافات.

والمقامات الكبرى التي شـرحها الأسـتاذ محمد زكي إبراهيم، وتحـدث فيهـا حديثـه المـدون فـي مجلة المسـلم عـن الملائكة والأقطـاب هـي إقحـام لجملة مـن المعلومـات الغريبة على قسـم السـمعيات في ديننـا، دون أن يكون لهذه المعلومـات الدخيلة أي إسناد من كتاب أو سنة.

وقد هدد من ينكرها بأنه «عند أهل الحق معوق عن السلوك، مؤخر عن الوصول، معرض للسلب والاستدراج»!

بل قال إن إنكارها «موطئ لما قد يكون به سوء الخاتمة والعياذ بالله؛ لأنه حكم على مجهول لا يقين عليه لغير العالم به فيسلم له»!

ونقول دون تردد: هذا باطل، فقد انتهى الوحي، ولا نسلم لبشر أن يزيد في حقائق الدين، بل إن الزيادة في هذا الباب لا تقل خطرًا عن وضع الأحاديث على رسول الله ﷺ ومن حق المسلمين في المشارق والمغارب أن ينادوا: هذا وحي من عند الله فيقبل، وهذا لغو من عند الناس فيرفض.

وإنني أعجب: لماذا يريد بعض إخواننا أن يقرن التصوف بهذه المبتدعات والغرائب المنكورة؟! إن التصوف عند رجاله الأوائل طريق تربية نفسية صالحة، وتدريب على مراقبة الله ومشاهدته فيما نفعل ونترك.

ويمكن تسميته علم الأخلاق الدينية، لأن تراثه المنتقى لا يخرج على هذا الإطار وقد كان أبي رحمه الله صوفيًا من أتباع الشيخ أبي خليل، فما عرفته إلا كادحًا يتقي الله في رزقه، ويقرأ كتابه في دكانه، ويعايش الناس على الأخوة السمحة، ولا يعرف شيئا بعد ذلك من هذه الخيالات.

٩١- لم حرم الإسلام لحومًا معينة؟ وهل لذلك حكمة؟

بيـن العبـاد وربهم عقـود تتصل بحقوقـه جل شـأنه، أو تتناول علاقة بعضهم ببعض، وقد تتناول علاقاتهم بالكون المسـخر لهم، والأحياء التي ذللها لمنافعهم.

وقد أمر المؤمنين برعاية هذه العقود والإحساس بحرمتها:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾

(المائدة: ١)

وما يتلى عليهم أربعة أنواع على الإجمال، وعشرة على التفصيل ذكرت في قوله تعالى:

﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾

(المائدة: ٣)

والتحريم مشـروع هنا لمصالح الناس، والحفاظ على صحتهم، ولا يقـال: إن الناس تـأكل الخبائث ولا يصيبها ضـرر ظاهر، أو أن الجماهير تشـرب الخمر والدخان والمخدرات ويتأخر اعتلالها، أو تكون وعكاتها خفيفة، إن هذا الكلام مردود، إذ إن التحقيق العلمي أثبت أخطار هذه السموم، وإذا كان البعض ينجو منها فلأسباب غير مطردة، والواجب أن تتنزه الجماهير عن أكل هذه المحرمات، فرارًا من بلاء الدنيا وعذاب الآخرة.

أول هـذه المحرمـات (الميتة) وهي الحيوانـات أو الطيور التي

تمـوت حتف أنفهـا ، ويغلب أن يكـون هلاكها لمـرض باطن بها ، وليسـت الأسـماك التي تمـوت بعـد خروجها من المـاء من صنف الميتة ، بل هي لحم حلال .

ثم الدم ، أي المسـفوح الذي يسـيل من عروق الذبيحة ، لا يجوز تجميعـه وطبخـه ، ولحـم الخنزير لقذارتـه واحتوائه علـى جراثيم وديـدان خبيثة ! ولحـم الخنزير محظور في الأديـان الأولى كما هو واضـح في تعاليـم العهـد القديم ، وقـد أباحه (بولـس) ولا ندري لماذا ؟ مع أن شرائع العهد القديم ملزمة للنصارى .

وما أهل لغير الله به ، وهذا تحريم تعبدي محض ، والمقصود قطع دابر الوثنية وما يمت إليها بصلة ! فما ذبح مقترنا باسم صنم أو بأي اسم آخر غير اسم الله حرم أكله .

والأصـل في الذبـح أن يكون باسـم الله الذي سـخر وأباح ، قال تعالى :

﴿ فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴾

(الأنعام : ١١٨)

﴿ وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ﴾

(الأنعام : ١٢١)

ويـرى فريق من الفقهاء أن ذكر الاسـم الكريم مسـتحب وليس فرضًا ، فذكر الله مستكن في قلب كل مسلم وإن لم يجر على لسانه ، وإنمـا يوصف المذبوح بأنه فسـق إذا ذكر عليه غير اسـم الله ، وقد اعتمد هؤلاء في فهمهم على سنن واردة !

ومن أنواع الميتة المحرمة « المنخنقة » وهي التي شـنقت نفسها أو شنقها غيرها بأن لف حبلا حول عنقها حتى طاحت .

و« الموقـوذة » وهـي التي ظلـت تضرب حتى هلكت سـواء كان

بعصا أو بما أشبه بالعصا، و«المتردية» وهي التي هوت من مكان عال، أو داخل حفرة، ففقدت حياتها، و«النطيحة» وهي التي ماتت في صراع مع حيوان آخر ظل ينطحها حتى أهلكها، «وما أكل السبع» التي عدا عليها وحش مفترس فأعطبها، فإذا أدرك المرء بهيمة من هذه الخمسة الأخيرة، ولا تزال بها حياة، فذبحها حتى سال منها الدم، جاز أكلها، مادام قد رأى أن ذبحه هو الذي أجهز عليها.

أما (ما ذبح على النصب) فهو من قبيل ما أهل لغير الله به، والنصب شاخص يقيمه الناس لمعنى يتواضعون عليه، كالنصب التذكاري للشهداء، أو للجندي المجهول مثلاً.

والذبح عند نصب قائم أو ضريح يزار نوع من الوثنية يأباه الإسلام، وتحرم به الذبيحة. إن الله الذي خلق كل شيء هو الذي سخر لبني آدم بعض مخلوقاته منها:

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾

(المؤمنون: ٢١)

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾

(غافر: ٧٩)

وللنباتيين رأي في ترك اللحوم كلها لا تقرهم الأديان عليه، ولا أعرف شريعةً سماوية حظرت ذبح الحيوان.

ومادام الله هو الذي أحل فينبغي التزام الأسلوب الذي قرره في الانتفاع بهذه الذبائح ورفض ما عداه.

والمحرمات التي أحصيناها هنا تكرر ذكرها في أربعة مواضع من

القرآن الكريم على طريق القصر والحصر، مما يجعلنا نعد ما ورد من نهي عن أكل غيرها من قبيل الكراهية، وفي ذلك خلاف فقهي معروف.

وقد أطال صاحب المنار في التعليق على تحريم كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير، واقترب من مذهب مالك رضي الله عنه، ولا نقحم أنفسنا في هذا الميدان، وإنما نلفت النظر إلى أن نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام قد بُعث بتحليل الطيبات وتحريم الخبائث! ونحن نجزم بأن ما نص الشارع على تحريمه فهو من الخبائث، فما الرأي فيما لم يتناوله الكتاب بنص؟

يقول الشيخ محمد رشيد رضا: «ما لا نص في الكتاب على حله أو حرمته قسمان: طيب حلال، وخبيث حرام. وهل العبرة في التمييز بينهما ذوق أصحاب الطباع السليمة، أو يعمل كل أناس بحسب ذوقهم؟ كل من الوجهين محتمل، والموافق لحكمة التحريم الثاني، وهو أنه يحرم على كل أحد أن يأكل ما تستخبثه نفسه وتعافه؛ لأنه يضره ولا يصلح لتغذيته، ولذلك قال بعض الحكماء: ما أكلته وأنت تشتهيه فقد أكلته، وما أكلته وأنت لا تشتهيه فقد أكلك!».

ونحن نرى أن الاستعانة بعلم (التغذية) وما وصل إليه الأخصائيون في علوم الأحياء مطلوبة، ولعل ذلك يميز الخبيث من الطيب، على أننا نرفض كل احتيال على إهمال النص، فإن الإسلام حرم لحم الخنزير، فإذا جاء اليوم من يقول: إنه ربى خنازير معينة على مراع حسنة واتخذ ضمانات لإنقاء لحمها من مصادر العلل لم نقبل قوله، ولم نستبح الحرام! إن ذلك يشبه ما تزعمه شركات التبغ من أن (الفلتر) الذي تضعه في سجائرها يمنع القطران من

تلويث الرئة، ما أغنانا عن هذا كله، وفي الحلال الكثير الميسور ما يغني عن هذه الحيل.

ولا يجوز تعذيب الحيوان عند ذبحه، وأفضل طرق التذكية ما يخفف على الحيوان خروج روحه، وقد رأى فقهاؤنا القدامى أن يكون الذبح بقطع الحلقوم والمريء والودجين- وهما عرقان على صفحتي العنق- أو أكثر ذلك، لتتم تنقية البدن من الدم الكائن فيه! يقول صاحب المنار: «إن هذا لتحكم في الطب والشرع بغير بينة، ولو كان الأمر كذلك لما أحل الصيد الذي يأتي به الجارح ميتا».

ثم يقول: «وإني أعتقد أن النبي ﷺ لو اطلع على طريقة للتذكية أسهل على الحيوان، ولا ضرر فيها كالتذكية بالكهربائية! إن صح هذا الوصف لفضلها على الذبح، لأن قاعدة شريعته أنه لا يحرم على الناس إلا ما فيه ضرر لأنفسهم أو لغيرهم من الأحياء».

ولا أعرف الطريقة التي يومئ إليها الشيخ رشيد! وقد عرفت أن مصانع اللحوم البقرية تضرب البهيمة قبل ذبحها ضربة تخدر أعصابها، ثم تقطع الرأس، وتمضي في تهيئة اللحم لآكليه، قد تكون الصدمة التي تذهب بإحساس البهيمة ولا تذهب بحياتها مشبهة للمخدر الذي يتناوله المريض قبل جراحة يجريها الأطباء ولا شيء في ذلك بداهة.

بيد أن أعدادًا من الغربيين والشرقيين يخنقون الطيور، أو يجهزون على حياتها بوسائل همجية أقسى من الذبح، وإن كانوا يعيبون الذبح! وذلك ما تأباه الشريعة الإسلامية.

ذلك، وقد عطف القرآن الكريم على الطيبات المباحة مثل لحوم الصيد:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ

ﭐلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾

(المائدة: ٤)

والصيد كما يكون بالكلاب المدربة والبزاة والصقور يكون بالأسلحة الفاتكة

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ ﴾

(المائدة: ٩٤)

وفي عصرنا هذا اختفت الرماح والسهام لتحل محلها الأسلحة النارية التي تقتل الصيد أو تصيبه بجراح مجهدة، وعند إدراكه حيًا ينبغي أن يذبح الذبح الشرعي المعهود، وإلا فإن موته بأي أداة من أدوات الصيد السابقة يعتبر ذكاة له.

وليس الصيد مسلاة لطلاب اللهو وهواة قتل الحيوان، بل هو مصدر من مصادر التغذية التي كان الناس ولا يزالون في بعض البيئات يحتاجون إليها.

والصائد يذكر اسم الله عندما يرسل كلبه، أو يطلق رصاصه، وروى ابن جرير: «إذا أرسلت جوارحك فقل باسم الله، وإن نسيت فلا حرج»، أي إن عدم الذكر لا يحرم الصيد.

وروى البخاري أن قومًا قالوا: يا رسول الله، إن قومًا يأتوننا باللحم لا ندري! ذكروا اسم الله عليه أم لا؟ فقال: سموا عليه أنتم وكلوا، قال: وكانوا حديثي عهد بكفر.

تابعت عن كثب النقاش الحاد الذي دار حول ذبائح أهل الكتاب وغيرهم من الأمم، وكان الناس يطلبون رأيي فأقول في قلة اكتراث: من شاء أكلها مهما كانت طريقة ذبحها، ومن شاء تركها، واستعاض

عنهـا بما يحب ! وألح علي بعض الإخوة أن أدلي برأيي في القضية، فلم أر بأسًـا من نقل وجهات النظر فيها مـع تعليق لابد من إثباته. .

يقول الشـيخ عبد الله بن زيد رئيس المحاكم الشـرعية بدولة قطر: «كل ذبيحة من حيوان، أو دجاج تجلب إلى الناس وهي مجهولة، لا يعلـم مَنْ ذبحهـا ولا كيف ذبحها، فإنها تنـدرج في عموم الحديث الذي رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنهم قالوا: يا رسول الله إن قومًا حديثي عهد بجاهلية يأتوننا باللحم، لا ندري! ذكروا اسـم الله عليه أم لا؟ فقال: «سموا الله أنتم وكلوا».

وقـد أباح القـرآن ذبائح أهـل الكتاب بدون قيد ولا شـرط، وما سـكت القرآن عـن تحريمه فهو حلال لقول رسـول الله ﷺ «إن الله تعالـى فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدودًا فلا تعتدوها، وحرم أشـياء فلا تنتهكوها، وسـكت عن أشـياء رحمة لكم، غير نسيان، فلا تبحثوا عنها».

قـد يقـال: إننا نعلـم بيقين أن مـن أهل الكتاب من يذبح باسـم الصليـب، أو مـن يخنـق الطيور، أو مـن يهوي بمثقل علـى أم رأس الحيوان فيقتله، فكيف نطعم شيئا من ذلك؟

قلت للسـائل: هذا بحث قديم، وقد اختلف الفقهاء فيه، فمنهم مـن أدرج هـذه الصور المحكيـة تحت عنوان (ما أهـل لغير الله به) أو تحت عنوان (المنخنقة) أو تحت عنوان (الموقوذة) واسـتثناها مـن ذبائح أهل الكتاب المباحة. . ومن الفقهاء من جعلها من ذبائح أهـل الكتاب المباحة بالنص، واسـتثناها من المحرمات السـابقة، وقـال: الله أعلـم- إذ أبـاح أطعمتهم- مـا يقولون ومـا يفعلون، من هؤلاء الفقهاء مالك رحمه الله، فقد جاء في (المدونة) أنه سئل عما ذبحوه للكنيسة أو غيرها، فقال أكره ذلك ولا أحرمه!

إن الله أبـاح لنا ذبائحهم وقد علم مـا يفعلونه، وقال القاضي ابن العربي المالكي في كتابه (أحكام القرآن) عند تفسير قوله تعالى:

﴿ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ ﴾

(المائدة: ٥)

قال: «وسـئلت عن النصراني يفتل عنق الدجاجة ثم يطبخها هل يجوز أن نأكل معه منها؟ فقلت: نعم كلوا منها، فإنها طعام أحبارهم ورهبانهـم، وإن لم تكن هذه الطريقة ذكاة عندنا، ولكن الله أباح لنا طعامهم مطلقا».

الخلاف الفقهي قديم كما نرى، والأسـاس الشرعي لكل مذهب قائم، من شـاء تبـع هذا فأكل ولا حرج، ومن شـاء تبع هـذا فامتنع ولا حرج، ولا أشـتغل بمزيد من عرض الأدلة المتقابلة لا تأييدًا ولا تفنيدا، فوراء هذه القضية أمر آخر يتصل بالسـلوك الإسلامي العام، أو يتصل بحاضر المسـلمين ومستقبلهم، لماذا يستورد المسلمون هذه الذبائح من أنعام وطيور؟

لماذا عجزوا عن تنميتها وتكثيرها في بلادهم؟ هل تربية الأبقار والدجـاج تحتـاج إلـى أخصائيين في علـوم الـذرة؟ وعندما تصاب قدرات المسـلمين بالشـلل في مجال الثروة الزراعيـة والحيوانية، فهـل ينتظر لهم تفـوق أو نجاح فـي الميادين الأخرى، بـرًا وبحرًا وجـوًا؟ إن الحمـاس في عالـم الجدل مـرض عفـن إذا صحبه برود فـي عالم الإنتاج، وقد رأيـت التدين التقليدي يتسـم بهذه الخاصة المزعجـة، قصـور في فهم أو فـي عرض وجهات النظـر المختلفة، ثم تراشـق بالتهم، وتبادل لسـوء الظن، فإذا تطلب الإيمان ضرورة اكتفاء الأمة بمواردها، واسـتغنائها عن سواها تبخر الحماس، وخلا الميـدان، لسـت من هواة التغلغـل في الفروع الفقهيـة، فإن أصول

العقيدة والأخلاق والتشريع تهمني وتستغرق وقتي، وما أنظر في الأمور الفرعية إلا بمقدار ما أجمع به الشمل وأمنع الفرقة وأُقصي المتزمتين والمعلولين عن أماكن الصدارة.

إن حاجة المسلمين إلى القمح لصنع الرغيف، أو إلى الدواء لعلاج العلل، أو إلى اللحوم ميتة أو حية شيء- في نظري- يهدد عقائدهم ذاتها، ويجعلهم يعيشون عالة على أهل الأرض.

فهل نوجه قدرتنا على الكلام والاعتراض إلى عمل إيجابي؟ أم تبقى مهمة بعض المتدينين الطعن في الدواء، لأنه ذائب في (الكحول) ورفض اللحم المستورد، لأن ذكاته موضع ريبة؟ ثم ينتهي دورهم! إنني أقدر النية الحسنة لكل من شارك في هذا البحث، ولكن الطريق لمّا يُمهد بَعْدُ لعملٍ جاد تتحرك به أمة كسول!

٩٢- هل توجد صحوة إسلامية معاصرة؟ وما أبعادها؟

[المقصود بالصحوة الإسلامية تنامي الوعي بأهمية العودة إلى منابع الإسلام ووزن السلوك بميزان الشرع]

إن الصحوة الإسلامية حقيقة قائمة ! ولكن الإعداد لسحقها وتبديدها حقيقة أبرز للعين وأرهب للنفس.

والمستشرقون الأوروبيون يعرفون طبيعة الإسلام، ويرصدون تاريخه القديم والحديث بعيني ذئب جائع. وتدبر قول المستشرق الألماني (باول شمتز) في كتابه (الإسلام قوة الغد العالمية) الذي صدر من نصف قرن تقريبًا : «إن انتفاضة العالم الإسلامي صوت نذير لأوروبا وهتاف يجوب آفاقها، يدعوها إلى التجمع والتساند لمواجهة العملاق الذي بدأ يصحو».

ويقول : «إن قوة القرآن في جمع شمل المسلمين لم يصبها الوهن ! ولم تفلح الأحداث الكثيرة في زعزعة ثقتهم به، وإن الروح الإسلامية مازالت تسيطر على تفكير القادة وعواطفهم، وستظل كذلك مادامت الشعوب الإسلامية قد ربطت مصيرها بتعاليم الإسلام، واعتقدت أنه الرباط الجامع بين أجناسها المختلفة».

إن هذا القول القديم الجديد يكشف ما وراءه من إعداد لضرب الإسلام غيلة أو جهرة، ويفرض علينا المزيد من الحذر واليقظة.

والحق أن الصحوة الإسلامية المعاصرة تكتنفها أخطار هائلة، يشارك في صنعها مبشرون ومستشرقون، وساسة وعسكريون، وأدباء وإعلاميون، وملاحدة وكتابيون، ومصارحون ومداهنون، وأناس غرباء وأناس من جلدتنا.

ولست أخاف أولئك كلهم يوم يكون قادة الصحوة الإسلامية

من معدن إســلامي صاف يجددون سيرة سلفنا الأول فيعملون بعقل مفتوح وقلوبهم ترنو إلى الله وحده.

لقد كادت الدعوة الإسـلامية تعلن إفلاسـها منـذ قرنين تقريبًا، بـل لقد تركـت الميدان خاليًا لشـتى الملل والنحل تنشـر الخرافة وتعلي راية الباطل، ثم بدت تباشـير صبـح جديد، وتيقظت الثقافة الإسلامية من سباتها تدافع بقوة وتمهد لغد أفضل.

وأريـد أن أقـدم للصالحيـن الجدد بعـض ما أفدت مـن تجارب؛ حتى يتجنبوا النكسـات وحتى لا يقدموا أرض الإسـلام غنيمة باردة للمتربصين من كل لون.

ويوجـد عاملـون فـي الحقـل الإسـلامي يظنـون أنفسـهم فوق المساءلة، لعل ذلك ببركة الوضوء والصلاة!

والـذي أراه أن القـوم يعانون عللا نفسـية، وأنه لا بركة هناك بل فوضى!

ولأتـرك هـذا التعليـق العابـر إلى أخطـاء لها جذور فـي ماضينا الطويل.

كان الأدباء قديمًا يلتزمون السـجع في مقالاتهم، ومرت بالأدب العربي عصور احتبس فيها داخل هذه القيود اللفظية.

والتزام السـجع يتم على حسـاب المعنى غالبًـا، فلن تجد فكرًا عميقًا ولا أداءً مناسبًا سهلًا ولا معالجة خصبة ثرّة لمختلف القضايا والموضوعات، بل إن السـجعة قد تخنق المعنى، ومن الطرائف في هذا أن أحد الـولاة قال للقاضي: أيها القاضي بقم، قد عزلناك فقم! فقال الرجل المعزول: والله ما عزلتْني ولكن عزلتْني السجعة!

ولم يأخذ الأدب العربي طريقه صعدًا إلا بعدما تخلص من القافية أو السجع. وما حدث في ميدان الأدب حدث مثله في ميدان الدين،

فقد مرت بالمسلمين عصور طوال أصبح فيها فقه الفروع عمود الدين وسنامه وذروة أمره! أو أصبح البحث في صور العبادات وأشكالها هو الشغل الشاغل للخاصة والعامة.

وتصور الدهماء أن إتقان المراسم شارة الكمال وسُلَّم الارتقاء ووسيلة القبول عند الله.

وعلم الفقه جزء له مكانته في الثقافة الإسلامية، لكن مكانته تجيء بعد علوم العقيدة والأخلاق.

وإتقان مذهب فقهي في الفروع العملية شيء حسن، ولكن هذا الإتقان لا يغني قليلًا ولا كثيرًا عن مهاد الأخلاق والعقائد الذي لا بد منه أولًا وآخرًا.

ربما اختلف الفقهاء: أيقرأ المصلي وراء إمامه أم لا؟ بيد أنهم متفقون على أن الخشوع روح الصلاة، وأن من فقد هذا الخشوع فقدت صلاته قيمتها، سواء قرأ أم صمت.

ومع ذلك فقد استفحل الغلو في قيمة أفعال الصلاة استفحالًا مزق شمل الأمة، فإذا الصلاة الواحدة تنعقد لها أربع جماعات في الأزهر الشريف واحدة للأحناف، وثانية للشافعية، وثالثة للمالكية ورابعة للحنابلة؛ لأن صلاة مقلد لا تصلح وراء مقلد آخر! وكان ذلك الانقسام يقع في الحرم المكي نفسه حتى أدركت المسلمين رحمة الله ففضّت هذه الجماعات كلها، وصلى الكل وراء إمام واحد.

إن توسيع المساحة التي يعمل فيها فقه الفروع تم على حساب تضييق المساحة التي تعمل فيها التربية الدينية، وتتحول فيها العقيدة إلى قوى روحية وملكات نفسية.

وتصور رجلًا منح جنيهًا ليعيش به فاشترى بنصفه مياهًا غازية ومعدنية، وبالنصف الباقي لديه سكرًا وشايًا، ووجه ما بقي بعدئذ

للخبز واللحم والبقول والفواكه... إلخ. إن هذا رجل سيقتله فقر الدم يومًا.

وقد لاحظت أن مصابنا شديد في الأنشطة العقلية والخلقية بسبب هذا العوج، وحسِبَ كثير من المتدينين أن التشبث ببعض المراسم العبادية الثانوية يغطي هذا التصور وهيهات.

وكنت أرجو أن تنقه الجماعات الإسلامية من هذا الاعتلال، فساءني أن بعضها غرق إلى الأذقان في البحوث الفقهية وما تشعب عنها من خلاف وما بني عليها من أوهام كبار.

إن حكم تحريم الذهب على النساء كما يرى البعض يساوي - وقد يرجح - تحرير أفغانستان من الشيوعية! وضبط الفرجة المستحبة بين قدمي المصلي يكاد يبلغ مجلس الأمن! وتحليل الموسيقى يشبه الكفر أو دونه الكفر.

لقد ذكرني هذا الخلل الرديء بما كنت أقرأ في كتب التاريخ، قال الراوي: دخل فلان على الخليفة، وتحدث معه بأغلظ القول. قال: فضممت عليَّ ثيابي مخافة أن يصيبني دمه!

إنني عجبت لهذه المخافة، مصرع رجل شجاع، ويتم أولاده ليس هو المحذور، المحذور أن تبتل ملابس الراوي بدم القتيل، ألأن الدم نجس؟ أم لأن ثمن غسله باهظ؟ إن توارث هذا الفكر سقوط عقلي وخلقي معًا، وأهل هذا الفكر لا يصلحون لشيء في دنيا الناس.

إنني ميال إلى إغلاق باب الاجتهاد في فقه العبادات، وإبقاء حق الاختيار، أو ما يسمى بالاجتهاد الانتقائي، نأخذ ما تدعو إليه الحاجة وندع ما عداه من الثروة الطائلة التي آلت إلينا.

والذي يدفعني إلى ذلك أن وجوه الرأي في كثير من القضايا تكاد تستوعب الصور العقلية، أو الشيء وضده معًا، خذ مثلًا إمامة

المـرأة في الصـلاة، يرفضها فقهاء مطلقًا ويجيزهـا البعض مطلقًا، ويرى الشافعي جوازها للنساء خاصة.

ولمـس المرأة؟ ينقـض الوضوء مطلقًـا، ولا ينقضـه بتة، وقال مالك: النقض وعدمه مقرون بطلب اللذة من اللامس!

وإمامـة الفاسـق؟ ردهـا بعـض الفقهـاء بإطـلاق، وأجازهـا قوم بإطلاق، وفصل آخرون متسـائلين: هل فسقه بتأويل أم بتبجح؟ هل فسقه قطعي أم ظني؟ ومع تغير الجواب يتغير الحكم.

ليت شـعري ما نصنـع نحن بعد ذلـك إلا الموازنـة والترجيح؟ وإذا انتهـى أحد إلـى رأي، فهل له إلزام الآخرين به ومؤاخذتهم على تركه؟ لا.

وقبـل ذلك كلـه وبعده، هـل هذه الأحكام تسـبق فـي الترتيب موجبات العقيدة، ومقررات الأخلاق، وضوابط التربية؟ لا.

إن الذي يكره مسلمًا؛ لأنه لا يضع يديه تحت رقبته في الصلاة، أو لأنه يقنت في الفجر مثلًا، رجل منحرف ضعيف الخلق.

وإتقانه للصلاة على النحو الذي يألف لا يمحو عنه هذه الوصمة، فالخطـأ الفقهي مأجور، أما الخطأ الخلقـي فهو إثم، وهذه الأخطاء الخلقية من وراء الفتوق الرهيبة التي تسـلل منها الغزو الاستعماري وفتك بنا.

أحسسـت غضبًا شـديدًا وأنا أسـمع مفتيًا في إحـدى الإذاعات يجيب عن سؤال وجه إليه: هل يجوز إخراج زكاة الفطر نقودًا؟ قال المفتـي: لا يجوز، ومن أخرجها نقـدًا وجب عليه أن يعيد إخراجها شعيرًا أو قمحًا، وقال: إن هذا التصرف بدعة، ومن أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد عليه.

وخيـل إلـيَّ مـن غضب المفتـي أنه لو وجـد أبا حنيفة لأمسـك

بخناقــه وأخمد أنفاســه ؛ لأن هذا الإمام يرى إخــراج الزكاة مما هو أنفع للفقراء نقدًا كان أم حبوبًا .

وأغلب المســلمين يتبع هذا الرأي ، فلمــاذا نحرجهم ؟ ! ولماذا نــرى فهمنــا هو وحده الديــن ؟ لم نضيق الأفق ونقطع مــا أمر الله به أن يوصــل ؟ إن المتقوقعيــن في نطــاق الأحكام الفقهيــة المحدودة يسيئون أكثر مما يحسنون .

وحدث في إحدى الكليات أن أقبل العميد على جمع من الطلاب كانوا جلوسًــا علــى بعض مقاعد الحديقة وخف الكل إلى اســتقبال أســتاذهم وقوفًا ، إلا واحدًا ظل على كرســيه لم يتحرك ، زاعمًا أن ما فعل هو السنة !

قلت : إن الرسول ﷺ قال للأوس لما جاء زعيمهم سعد بن معاذ : « قوموا إلى سيدكم » ! والطلاب الذين قاموا مرحبين بعميدهم أقرب إلى الفطرة والســنة والأدب من هذا الطالب ، وهو يسيء إلى الإسلام بهذا المسلك .

قال لــي أحدهم : إنــه طالب محافــظ يربي لحيته ! قلــت : تربية اللحيــة من ســنن الفطرة ، وتربيــة النفس مــن أركان الإيمان ، وماذا عليه لو أحسن الشكل والموضوع ؟

إن الاهتمام بالشكل أول مراحل التقليد ، فالطفل عندما يرى أباه وهو يصلي يحفظ حركات جســمه ركوعًا وسجودًا ، ويبدأ محاكاته فيها ، أما مشاعر الخشوع ومعاني الكلمات فهو لا يراها ، ولا يحسن تقليدها ، لعله يبلغ ذلك مستقبلًا بالدراسة والتجربة والمعاناة .

والأمــم الطفلــة هي التي تبــرع في تقليد الشــكل وتفصله فصلًا تامًــا عمَّا ارتبط به من معان ، فهي في ميدان الأدب تحســن الســجع

والجنـاس أكثر مما تعمق الفكرة وتسـدد النظـرة، وهي في ميدان الدين تضحي بوحدة الأمة في سبيل إخفاء البسملة أو الجهر بها.

وسـلفنا الأول كان أرفـع كثيرًا جدًا من هذا المسـتوى؛ ولذلك خدم رسالته وبلغ دعوته.

هـل من الصحوة الإسـلامية أن يهمـل البعض التفـوق الصناعي مدنيًا كان أو عسـكريًا لانشـغاله بحكم الصلاة فـي النعال، وجواز دخول المسـاجد بها؟ هذا المسـلك إغماء عقلي وهوس ديني، ولا يوصف أبدًا بالخير.

ثم، أيصنع العقل الغربي السيارة ونشتريها نحن لنكتب عليها: «عين الحسود فيها عود! أو كايدة الأعداء»!

إن أيـة يقظة إنسـانية إنما تنهض بدءًا وختامًـا على حدة العقل، وسـناء القلب، والإسـلام إنما أنهض العرب وحلـق بهم في الأوج؛ لأنـه أنعش هـذه الملـكات الإنسـانية وأطلقها تسـعى، والصحوة الإسـلامية الحاضرة ينبغي أن تترسم الخطا الأولى لا أن تتبع خلوفا ظلموا دينهم وأنفسهم على سواء.

هـل نسـتقدم خبـراء ليعلمونـا نظافـة البيـوت والمـدن؟! هل نسـتقدم خبراء ليعلمونا الهدوء والنظام والسير في الشوارع برتابة وكياسة؟! هل نستقدم خبراء ليعلمونا أن التزوير في أداء الشهادات وإجراء الانتخابات ضرب من الوثنية؟! هل نستقدم خبراء ليعلمونا كيف ندفع الكفاءات إلى الأمام ونرد التافهين إلى الوراء؟!

إن هناك أبجديات في الفطرة الإسـلامية لا ندري لماذا ننساها؟! ولن تتم صحوة إلا عندما نفتتح بها أولًا.

قـال لي صديق عالم فـي (الجيولوجيا): إنني قلـق الآن، أمامنا

عشرات الســنين حتى نطوي مســافة التخلف الحضاري بيننا وبين من ســبقونا في ميادين الــذرة والفضاء والطاقة وغيرها ! ودعم الحق ميئوس منه بالوسائل البدائية.

قلــت : إنني أومن بعــون الله ، ثم اســتتبعت أقول لنفســي ولكل مهتم بأمر دينه : إن العون الأعلى يظفر به الصاحون بين السكارى ! فلنجتهد في ترشيد صحوتنا المعاصرة حتى تؤتي جناها.

٩٣- ما مكانة العمل والعلم في الإسلام؟ وهل هما قاصران على العمل العبادي والعلم الديني؟

الإِسـلام هـو الوحي النازل علـى محمد ﷺ ليوجه بـه الحياة إلى ربها، ويهدي الناس كافة إلى الصراط المستقيم.. أي إنه حقائق مقررة أولًا، ثم أساليب متجددة في البلاغ والعرض، والحماية والدفاع.

لنفرض أن صاحبَ فلسـفةٍ ما اقتنع بأن ما لديه ينفع العالم.. إنه ابتداءً يشـرح ما عنده ويطبقه في ذات نفسـه، ثم ينتقل إلى تفهيم الآخرين بكل وسائل الفهم، ويحتاط ضد المعتدين والمعوِّقين بكل أسباب المقاومة.

وقد مضى الإِسلام على هذا النهج منذ بدأ مسيرته، أو منذ استمع نبيه إلى صوت الوحي:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: ١ – ٥)

إن العلم هنا من شقين، علم بحقائق الوحي، وعلم بطرق غرسه، وذوْد الأذى عنه!

في الفلسـفات المادية المعتادة يسير العلمان معًا سيرًا لا يتسم بأي تناقض!

فالشـيوعية تسـوي بين رجل الإِعـلام الذي يعـرض مبادئها في الصحـف المحليـة والهيئـات الدوليـة، وبيـن رجل الفضـاء الذي يستكشـف الكـون، ويسـتخدم الأقمـار الصناعية في الكـر والفر والظفر في حرب الكواكب!

كلا الرجلين يؤدي واجبه نحو مبدئه، وكلا العلمين يعمل للآخر

ويعانقــه . . إننا نضرب هذا المثل ليعلم السُّــذَّج من المســلمين أن تالــي القــرآن الكريم في الإذاعة يعــرض نوعًا من المعرفــة الدينية ، وأن الذي يشــرف على توجيه صاروخ في الفضاء كي يدافع عن هذه المعرفة لا يقل مكانة عن القارئ المرتل ، وقد يكون -بصدق نيته- أَوْلى بالله منه !

إنــه هو الآخر يمثل علمًــا لا بد منه ، وما يحيا العلم الأول إلا به ، فالإيمان أُسّ والجهاد حارس .

والواقــع أن الثقافــة الإســلامية منــذ نشــأتها تشــعبت أصولهــا وفروعهــا ، وتشــعب العمــل الــذي يقــوم بــه المســلمون فــرادى وجماعات ، وليس في تاريخ هذه الثقافة علم ديني بعيد عن الحياة ، وعلم مدني بعيد عن الدين ، ولم يقع انقســام العلم إلى ديني ومدني إلا في عصور السقوط والاضمحلال .

وبديــهٌ أن تكون علوم الشــريعة أول مظاهــر الحركة العلمية في الإســلام ، فنشــأت علوم القرآن والســنة والفقه والأخلاق والتربية ، ولا يجرؤ أحد على إنكار ما في القرآن الكريم والســنة المطهرة من خصوبــة فكرية ، ومنابــع غزيرة للفكر والوجدان والســلوك ، إنهما مِهادٌ جليلٌ لحضارة إنسانية ذكية رحبة .

ثــم صاحب ذلــك ميلادُ العلــوم العربية من نحــو وصرف ومعان وبيان وبديع ، وازدهر الأدب والبحث في فلسفة اللغة وأسرار البلاغة وألفت القواميس ، وأصبحت الدراسات الأدبية واللغوية جزءًا أصيلًا من عمل المعاهد الدينية .

ونشــطت الدراسة الفلســفية ، التي تحولت في عصرنا إلى علوم إنســانية ، فلم تبق في أرض الله أثارة من معرفة إلا اســتقدمها العرب ، وتوفروا على فهمها وتقويم مسارها .

ومع نضج الفكر الإسلامي ظهرت علوم الكون والحياة مستهدية بمنطق الملاحظة والتجربة -وهو منطق قرآني المنبت- فكانت علوم الرياضة من حساب وجبر، وعلوم الطبيعة والكيمياء، والفلك!

ويكاد المنصفون من مؤرخي الحضارة يُجمِعون على أن المسلمين هم أولو الفضل على النهضة الأوروبية، وأنهم السبب المباشر في عصر الإحياء.

وقد كان من وراء الانتصارات العسكرية الإسلامية -إلى ما قبل بضعة قرون- تفوق علمي وصناعي، هو الذي أعان على فتح (القسطنطينية) وحصار (فيينا) ووقف الزحف الصليبي.

ويرى المحققون أن الحرب التي نشبت بين العلم والدين في أوروبا قد أشعلتها الكنيسة عن عمد؛ لأنها رأت أن الاتجاه العلمي المبتكِر الناشط هو أثر من آثار الزحف الإسلامي الناجح، وأن العلماء الباحثين هم طابور خامس للجهاد الإسلامي القديم.

بيد أن هذا كله تلاشى مع خمول المسلمين الأخير، وانطفاء جذوتهم، وانتشار الجهل العام في ربوعهم، وفهم كثير منهم أن العلم لا يتجاوز دراسة الوضوء والصلاة والمواريث! وأن ما وراء ذلك من أدب وفن وكشف وذكاء نوع من الفضول.

وقد دفعوا ثمن ذلك الخطأ سوادًا صبغ الوجوه وأخزى النفوس، وجعل بلادهم بين الأطلسي والهادي مسرحًا لاستعمار أناني ظلوم، أكل دينهم ودنياهم على سواء.

ومن الغرائب أن بعض الفتية المشتغلين بالدين لا يزالون صرعى هذا الغلط الفاحش، وأن المنتسبين منهم إلى كليات عملية أو

مدنية يصدفون عن[٥] الدراسات المكتوبة عليهم ويقولون: ندرس علوم الدين.

وَيْحَكم! وهل يقوم الدين إلا بالعلوم التي فيها تزهدون؟

وكما لا يقوم إلا بها، فهو ما يَحْسُنُ فهمه إلا في ضوئها.

من هؤلاء الفتية من أمضى عدة سنوات في كليات الهندسة أو التجارة أو غيرها، ورأى أن يضحي بالسنوات التي قضاها ويلتحق بإحدى الجامعات الإسلامية.

وأقتطفُ هذه الفقرات من رسالةٍ كتبها لي أحدهم يقول فيها: «يؤلمني ألمًا شديدًا، ويعتصر قلبيَ حزنًا تعددُ الأهواء، وإعجاب كل ذي رأي برأيه! وقد دعوتُ الله أن يلهمني الحق، ويهديني الطريق القويم، ويوفقني إلى الالتحاق بالجامعة الإسلامية، فقد علمتُ من قراءتي للإمام الشافعي (أن العلم ما كان قال: حدثنا، وأخبرنا. وغير ذلك وساوس شياطين) ولذلك فإني أرغب في التعلم الديني المنهجي! والله يوفقك لمساعدتي».

وقد رقَّ قلبي لصاحب الرسالة، وحاولتُ إلحاقه بكلية الشريعة في دولة قطر، ولكن التعليمات القانونية لم تسمح!

ولا بد من وعي الكلمة المنسوبة للإمام الشافعي -إن صحت- فالمراد منها أن شئون العبادات لا مجال فيها للآراء الشخصية، وإنما تؤخذ العبادات من النقول الثابتة عن المعصوم.

وقضايا العبادات قطرة من بحر في سلوك المسلمين وشئونهم العلمية، ولا دخل للروايات في موضوعات العلوم الأخرى.

وقد تأملتُ في سيرة نفر من خريجي الجامعات الإسلامية، فكدت أيأس من جدواها، هذا رجلٌ يحمل حملةً شعواء على الأضرحة، قال

(٥) الصدوف: الميل عن الشيء. انظر لسان العرب. (المجلة)

لي أحد مستمعيه : لكن لا توجد في هذا البلد أضرحة . . قلت : كلامٌ سمعه لا يعرف غيره فأفرغه بينكم .

وفي افتتاح مسجد بباريس ، وفي أثناء التقاط صور تذكارية للحفل قام واحد من هؤلاء في حالة تشنج يذكر أن التصوير الشمسي حرام !

فقال له أحد الحضور : ذلك رأيك ! وما أكثر الفقهاء الذين يخالفونك ، إنك توقف سير الدعوة الإسلامية في باريس بهذا التعصب الضيق لرأي ما ، فهل تريد التضحية بالدين كله من أجل وجهة نظر لك أو لأناس قاصرين خلفك ؟

قلت في نفسي : ما أتعس حظ الإسلام ، إذا كان المتحدثون باسمه لا يعرفون العلم الخادم له أو المبين عنه . . إلا بعض المرويات ، وبعض الأفهام !

عندما عرض عفريت من الجن على سليمان أن يأتيه بعرش بلقيس من اليمن إلى فلسطين قبل أن يقوم من مقامه :

﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى ﴾

(النمل : ٤٠)

ما أحوج المسلمين إلى رجال أوتوا علم هذا الكتاب ! أم أن هؤلاء الرجال خشوا سوء الاستقبال عندنا ، فحطوا رحالهم في أوروبا وأمريكا ؟

ليس للعلم ولا للعمل صورة واحدة صالحة ، أو ميدان واحد مقبول . . فإن الله أمر المسلمين أن يفعلوا الخير :

﴿ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

(الحج : ٧٧)

وكلفهم مع فِعْله أن يدعوا الآخرين إليه :

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ ﴾

(آل عمران : ١٠٤)

فهل للخير المطلوب شكلٌ واحدٌ لا يُرَى إلا في الصلاة والصيام؟ إن صنوف الشرِّ لا تُحصَى، وصنوف الخير لا تُحصَى! وما يحشده البشر لتحصيل الخير أو الشر لا يُحصَى، وللوسائل حكم الغايات.

والحق أن العمل الصالح، الذي هو صنو الإيمان، هو كل سلوك يترجم عن نية حسنة وغاية شريفة، وقد يكون فلاحةً أو صناعةً أو إدارةً، وقد يكون سَفرًا أو إقامةً، وقد يكون قتالًا أو سلامًا.. إنه مسلك غير محدد لباعثٍ واحدٍ هو حب الخير، وطلب الإصلاح.

﴿ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾

(الأنعام : ٤٨ ، ٤٩)

وقد سمى القرآنُ الكريمُ تجويدَ الصناعات الحربية -لدعم الحق بداهة- سماها عملًا صالحًا، فقال عن نبي الله داود :

﴿ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

(سبأ : ١٠ ، ١١)

وجعل كل تعب يعانيه المجاهدون، وكل بذل يتكلفونه عملًا صالحًا

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى

سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾

(التوبة : ١٢٠)

ومـا يذكره القـرآن الكريم ليس إلا نمـاذج وأمثلة . . ولقد اعتبر الرسـول الصلة الجنسـية بيـن الرجـل وامرأته عمـلًا صالحًا يثاب عليه ؛ لأنها حصانة من الإثم ، ووقاية من الشرود .

إن كل علم تسمو به الإنسانية ، وكل عمل تزكو به هو من صميم الدين ، ترجح به الموازين ، وترتفع به الدرجات في الدنيا والآخرة .

٩٤- لماذا لم يحرم الإسلام الرق كما حرم الخمر والربا؟ وما موقفه الحقيقي من هذه القضية؟ وهل يجوز للمسلمين في حروبهم مع أعدائهم أن يعدوا أسرى الحرب رقيقًا؟

في مطالع البعثة المحمدية كان الرقيق واقعًا غير مؤلم ولا مستغرب ولا منكور.. وكانت جماهير الأرقاء تزحم المشارق والمغارب لا يأبه لهم أحد ولا يفكر في إنقاذهم مصلح.

في أرجاء الدولة الرومانية النصرانية كان العبيد يخدمون في صمت، وربما قُدِّم بعضُهم طعامًا للوحوش في بعض المناسبات، وكان اليهود -وفق تعاليم التوراة- ينظمون أساليب الاسترقاق للعبرانيين وغير العبرانيين.

ولِمَ الأسى على الرقيق وحدهم؟ إن المنبوذين في القارة الهندية كانوا أنجاسًا لا تعرف لهم حرمة، ولقد وقع ابنٌ لامرأةٍ برهمية في بئر، وكان أحد المنبوذين يستطيع إنقاذه لو أذنت أمه! لكن الأم فضلت أن يموت ولدها ولا يعيش بعدما لمسه منبوذ.

وجاء في الكتاب المقدس أن طعام البنين لا يُعطَى للكلاب.. والنبيون هم بنو إسرائيل.. والكلاب هم الكنعانيون الذين كانوا يسكنون فلسطين قديمًا.

في هذا الجو القابض الظلوم كانت الإنسانية تعيش، ما أنصفتها فلسفة اليونان التي تقر الاسترقاق بعقلها المفكر! ولا أنصفتها مواريث التدين التي احتضنها الكهنة، وأظلمت بها الأرض.

حتى تكلم محمد، وأصاخ الناسُ إلى ما جاء به فإذا هم يسمعون

أن البشر كلهم إخوة بينهم نسب واحد، وتسري في أوصالهم نفخة من روح الله، وأنهم سواسية في الحقوق والواجبات وأنهم خُلقوا ليتعارفوا ويتحابوا.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾

(الحجرات: ١٣)

وسمع الناس للمرة الأولى في تاريخهم أن المسترقِّين يجب أن تفك قيودهم وتعتق رقابهم، وأن العانين ينبغي أن يحرَّروا من الذل والجوع والهوان، وأن العقبات دون هذا كله لا بد من اقتحامها لمن يريد رضوان الله ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾

(البلد: ١١ - ١٦)

وعلى المؤمنين أن يتجردوا لأداء هذا الواجب، فلا يحرروا الأسرى ليجعلوهم أتباعًا، أو عبيد إحسان بعدما كانوا عبيد سطوة، كلا إنهم كما وصفهم الله في كتابه:

﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾

(الإنسان: ٨، ٩)

ولما جاء دور التشريع لنقل هذه المبادئ إلى قوانين ملزمة نظر الإسلام إلى مصادر الرق فألغاها كلها، على النحو الآتي:

كان الرومانيون ومِن قبلهم العبرانيون يحكمون بالعبودية على مقترفي بعض الجرائم.. ومن هذه الجرائم عند الرومان عجز

المعسـر عن الوفاء بالدين.. وقد رفض الإسـلام هـذه النظرة رفضًا حاسـمًا، ولـم يبح أن يسترقّ إنسان في دين عجز عن أدائه، بل رصد مـن الزكاة المفروضة سـهمًا لازمًا لسـداد ديون المعسـرين، وقال تعالى:

﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

(البقرة: ٢٨٠)

وكان الخطـف إلى القرن الماضي مصدرًا هائلًا للاسـتعباد، وقد ظل الأوروبيون يصطادون البشـر بضعة قرون من غرب أفريقيا، في ظروف تكتنفها الوحشـية المطلقة، وتم خطف عشـرات الملايين وهلاك مثلهم في أثناء الغارات التي كان يقوم بها قراصنتهم.

وأبى الإسـلام إباءً شديدًا خطف الأحرار، وهدم كل ما انبنى على هذا الخطف من آثار، وجاء في الحديث القدسي عن رب العزة: قال الله تعالى:

«ثلاثـة أنا خصمهم يوم القيامة، ومن كنت خصمه خصمته -أي غلبتـه-؛ رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حرًا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرًا فاستوفى منه ولم يعطه الأجر». (صحيح البخاري)

والمصـدر الثالـث للاسـترقاق -وهـو مصـدر خطيـر- أسـرى الحـروب؛ إن أولئـك المنكودين الخزايا كانوا يواجهون مسـتقبلًا غامضًا، وقد يكون الاسترقاق أهون ما يتوقعون.

وفي الحرب العالمية الثانية لم تعرف مصاير الألوف المؤلفة من أسرى الروس لدى الألمان، أو أسرى الألمان لدى الفرنسيين.

فـإن كان ذلك ما وقع أيـام التحضر والارتقاء، فما ظنك بما كان يقع قديمًا؟

على أية حال، فإن الإسلام في أول حرب خاضها خرج على الدنيا بمبادئ أزكى وأرق في معاملة الأسرى، فنزل على رسول الله ﷺ في الأسرى بعد معركة بدر:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

(الأنفال: ٧٠، ٧١)

والخيانة التي تشير إليها الآية موقف المشركين من قضية الحريات الدينية والإنسانية كلها، فقد كان موقفًا غبيًا متعنتًا مليئًا بالكبرياء والقسوة.. أكان هذا موقف عبدة الأوثان وحدهم؟

كلا، فإن جماهير أهل الكتاب كانوا أخس وأظلم.

يقول الله تعالى:

﴿وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ﴾

(البقرة: ١٤٥)

ليكن! فليس لأحد أن يرغمهم على اتباع الإسلام! لكنهم لم يكتفوا بهذا، بل لجأوا إلى صد الأتباع وفتنة الضعفاء، وقيل لهم:

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾

(آل عمران: ٩٩)

ولو أن الكره للإسلام كان عواطف فرد أحمق، أو سلوك نفر متعصبين لهان الخطب.. لقد تحول إلى حرب ساخنة يصلاها دينٌ

عده خصومُه خارجًا على القانون، ولم يروا الاعتراف به أبدًا.

ولننظر إلى صدر تاريخنا القديم، ولنتساءل: متى اعترفت الأديان الأخرى بحق الحياة للإِسلام، وحق أتباعه في إقامة مجتمع له؟

لا مجوس فارس، ولا يهود المستعمرات المقامة في جزيرة العرب، ولا الرومان الذين اعتنقوا النصرانية ليجعلوا منها ذريعة استعمار أسود أكل الشام ومصر وغيرهما طول خمسة قرون.

ومع ما أحسه سلفنا من وحشة ونكير، فقد خاضوا ضد أعدائهم حربًا عادلة، وأمروا بكسر شوكتهم ومحق كبرهم حتى إذا قلموا أظافرهم وأذلوا طغيانهم قيل لهم: لكم أن تمنوا على الأسرى والمنهزمين

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾

(محمد: ٤)

وقد يفزع البعض لكلمة (ضرب الرقاب)، بيد أن فزعه هذا يذهب عندما يعلم أن عربيًا من أذناب الروم، ومن ولاتهم في شمال الجزيرة قبض على المسلم الذي جاء برسالة من لدن النبي ﷺ يدعو فيها إلى الإِسلام وقال له: أنت حامل رسالة محمد؟

– نعم.

فأمر بضرب عنقه!!

كأن حملُ كتابٍ رقيقِ العبارة، مقبولِ العرض، جريمةً تُعالَج بالقتل السريع.. بمَ يعاملَ هؤلاء الأذنابَ من سماسرة الاستعمار الروماني المتعصب؟

إنها الحرب ولا شيء غيرها.

ثم قيل بعد ذلك للمقاتلين المسلمين:

﴿إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَا﴾

(محمد: ٤)

المـن أو الفداء! ليس هناك تصريح في الآية باسترقاق أحد، لم يعد الأسرُ منبعًا دائمًا لأسواق الرقيق، كما كان ذلك معهودًا في القرون الأولى.

وهنا نبحث: كيف يتم تنفيذ هذا المبدأ؟ هل يطلق المسلمون سراح الأسرى دون قيد أو شرط ليعودوا إلى مقاتلتهم مرة أخرى؟

هل يتم هذا التحرير في الوقت الذي يباع أبناؤهم فيه هنا وهناك؟

إن معاملة الأسرى ليست تشريعًا محليًا. يصدر من جانب واحد، إنه تشريع تلتزم به أطراف متشابكة المصالح، متعاونة على احترام قيم معينة.

هل يجد المسلمون هذه المعاني عند خصومهم؟ كلَّا! فإن هؤلاء الخصوم من عبدة الأصنام، أو من أتباع الكتب الأولى لا يقرون للمسلمين بحق الوجود، فكيف يسمحون لهم بحق البقاء وحرية التدين؟!

وعندما يوجد تفاهم دولي على (المن أو الفداء) فنحن أول من يهرع إلى الإسهام فيه، وإنفاذ عهوده.. إن مبدأ المعاملة بالمثل له أثره العميق في العلاقات والمعاملات الدولية، وقد قلنا: إن الأمريكيين لو عرفوا أن اليابان تملك رادعًا نوويًا، ما فجروا قنابلهم الذرية فوق هيروشيما وناجازاكي!!

وإلى أن يتم تفاهم عالمي على أسلوب إنساني في معاملة الأسرى انفرد الإسلام بتعاليم تحنو على أولئك المنكوبين، وتذكر بالأخوة الإنسانية وتوصي بالرحمة، وتعاقب على الغلظة، أو بعبارة موجزة:

إن الإِسلام جفَّف منابع الرق جهد الطاقة، نوَّع أسباب التحرر والانعتاق! فليس هناك أمر باسترقاق، وإنما هناك أوامر بالإِعتاق، وقد بسطنا ذلك كله في موطن آخر(٦).

قال لي شخص من المتأثرين بالاستعمار الثقافي: إن الحضارة الحديثة هي التي حررت النساء والأرقاء، ولا ريب أنها انساقت إلى ذلك من مواريثها الدينية!

قلت له: إن الحضارة الحديثة مكنت ناسًا لهم فطرة سليمة من خدمة البشرية مثل أبراهام لنكولن الذي قاد حربًا شديدةً لتحرير العبيد، وقد لقي الرجلُ مصرعَه بعد هذا البلاء، كما لقي غاندي مصرعه على يد هندي متعصب لدينه!

وأصحاب الفطرة السليمة الذين جاهدوا في سبيل هذه الغايات النبيلة كانوا يستوحون ضمائرهم وحدها.

أين توجد المواريث الدينية في تحرير النساء عندما تقرأ رسالة بولس الأول إلى أهل كورنثوس، الإِصحاح الرابع عشر فقرة ٢٤ وما بعدها «لتصمت نساؤكم في الكنائس؛ لأنه ليس مأذونًا لهن أن يتكلمن، بل يخضعن! كما يقول الناموس أيضًا، ولكن إن كن يردن أن يتعلمن شيئًا فيسألن رجالهن في البيت؛ لأنه قبيح بالنساء أن يتكلمن في كنيسة».

وأين تجد المواريث الدينية في تحرير الأرقاء عندما تقرأ رسالة بولس إلى أهل أفسس: «أيها العبيد، أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة! في بساطة قلوبكم كما للمسيح، لا بخدمة العين كما يَرضى الناس، بل كعبيد المسيح... إلخ»(٧).

---

(٦) حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة.

(٧) على هذا النص وغيره استقر الرق في الغرب، وقتل أحد المتدينين المتعصبين له (لنكولن) محرر العبيد.

إن رجالًا من أصحاب القلوب الكبيرة هم الذين جاهدوا بشــرف لتكســير القيود التي أنشــأها التظالم البشــري على مــر العصور.. والحقيقة أنه لا دين إذا طُمست الفطرة وطغت الأثرة!

وللإسلام علامة مميزة يعرف بها، ويلفت كل امرئ إليها، تبدو في قوله تعالى:

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(الروم: ٣٠)

ومــن هنــا حكمنا بأن التقاليــد التي يتعارف النــاس عليها يجب نبذها إذا خالفت الفطرة!

ويســتحيل أن تكون هذه التقاليد دينًا، وإن استمســك بها بعض الكهان.

٩٥- ما موقف الإسلام من الحضارة المعاصرة؟ وهل يمكن القول بأن للإسلام حضارة خاصة يدعو إليها؟

هناك جوانب في الحضارة الحديثة جديرة بالاحترام، بل أعتقد أنها امتداد أو انطلاق من الفكر المتحرر الراشد الباحث عن الحق، الحفي بالمعرفة، المستغل لأثمن مواهب الإنسان.

إن الوصول إلى اليقين في قضية حسية أو عقلية ليس شيئًا رخيصًا، إنه ثمرة غالية لأعلى مواهب البشر، بل هو الاستجابة الوحيدة لقوله تعالى:

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾

(الإسراء: ٣٦)

وهو كذلك البعد المطلوب عن نهج المنحرفين والواهين والقاصرين الذين قيل فيهم:

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾

(النجم: ٢٨)

والحضارة الحديثة نجحت في ميدان البحث المادي، وتعمقت في الدراسات الكونية كلها، وهذا النجاح -في رأيي- يجعلها أقرب إلى منطق القرآن الكريم، وأدنى إلى منهجه، فإن التفكر في الكون أرضه وسمائه وما بينهما، مطلب إلهي لا ريب فيه.

والمسلمون يحملون أوزار التخلف في هذا المجال، وقد دفعوا ثمنه فادحًا، وأرى أنه من عصيان الله، والفسوق عن أمره الانشغال

بالجدل العقيم، وفلسفة ما وراء المادة، وتشقيق الخلاف وتكثيره في شئون يستوي فيها العلم والجهل.

إن الحضارة الحديثة اكتشفت كثيرًا من قوى الكون وأسراره، ولها الآن حصيلة كبيرة في علوم الذرة والفضاء و(الإلكترونيات) و(الكمبيوتر)، وقد نَقلت آثارَ ذلك إلى تفوق مدني وعسكري في البر والبحر والجو.

ومع هذا السبق البعيد، فإن الحضارة الحديثة لا تزال واقفة عند العصر الحجري في ضبط الغرائز، وترويض الحيوان الرابض داخل الجسم البشري، وكبح الأثرة المسعورة، وجعل المرء يحب غيره ويغار على حقوقه أو على الأقل يعدل مع غيره، ويعترف له بحقوقه طوعًا لا كرهًا!!

وقبل ذلك، فشلت هذه الحضارة في التعرف على رب العالمين، وتأسيس علاقة صحيحة معه تقوم على توقيره وتقدير نعمته والشعور بعظمته والتسبيح بحمده والتعويل عليه في الأزمات والاطمئنان إليه في المخاوف.

إن الإنسان مهما قوي بالعلم فلن يكون إلهًا، وسيبقى ما عاش فقيرًا إلى سيده، لا يحس طمأنينة إلا في السجود بين يديه، واستلهامه الرشد.

لكن من أين تطرَّق الخللُ إلى هذه الحضارة حتى إنه ليهدد مستقبلها؟

قد يكون الجواب: من غرور الماديين بما وصلوا إليه، واستهانتهم بما قصروا فيه.. والغرور بالعلم داء قديم، وقد حدثنا القرآن الكريم أن أممًا عمرت هذه الأرض قبلنا، وأقامت بها مدنيات

فخمة، وأنها انتشت بما تيسر لها من لذة، وسخرت مما قدم لها من نصح، فماذا كانت عقباها؟

﴿ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾

(غافر: ٨٣)

والاعتزاز بالتقدم العلمي مرض مخوف، بيد أني لا أردّ إليه وحده عوج هذه الحضارة! والسبب الأول ناشئ -فيما أرى- من خيانة أهل الأديان لرسالات الله، فالاسترخاء العقلي السيِّئ عند المسلمين، والغش الممجوج عند إخوانهم أهل الكتاب من وراء هذا البلاء!

أهل الكتاب قدَّموا من عند أنفسهم تعاليم نسبوها إلى الله، ضاق بها العقل، وتبرمت بها الفطرة فنشب العراك بين العلم والدين، وكانت النتائج المعروفة، ألحد العلمُ وساء ظنه بالوحي كله.

وأما المسلمون فقد أوغلوا في البعد عن دينهم حتي أمسوا في واد ودينهم في واد آخر!

التفكير الذي هو فريضة عليهم حسب وصية الكتاب تحوَّلَ إلى تقليد وجمود، وإذا عرض له نشاط ففي ما وراء المادة لا في المادة نفسها كما شكونا مرارًا.

ومفاخر الحياة الإسلامية الأولى تلاشت، فإذا قال شوقي:

فالدين يسر، والخلافة بيعة ... الأمر شورى، والحقوق قضاء!

وجدت التاريخ في أعصُرٍ شتَّى يؤكد أن الأمر استبداد، والخلافة اغتصاب، ويسر الشريعة رياء وتعقيد، والحقوق دعاوى (من الناب والظفر برهانها)!

على حين ظهرت الحضارة الحديثة بأساليب ثقافية وإدارية أدنى إلى الفطرة والشورى والاختيار الحر وإن شابها ما لابسها من هوًى جامح وإسراف كثير.

وصلاح الحياة لا يتم بهدم الباطل ؛ لأن الباطل جدير بالزوال! كلَّا، لا بد أن يكون الحق تام الاستعداد ليحل محله، ويؤدي عمله بقدرة أعظم وأشرف.

وأعترفُ بأن المسلمين لم يستكملوا هذه الخصائص، ولا هم اليوم أهل لتلك القيادة.. الحضارة الحديثة نسيت الله كل النسيان، ولم تأخذ أي أهبة للقائه، إنها تعبد اليوم الحاضر، وتجحد ما وراءه، وتعبد الجسد وتغالي بمطالبه وحدها.

ونحن باسم الإسلام نقاوم هذا الاتجاه الزائغ، ونرفضه جملةً وتفصيلًا. أما الاقتدار العلمي، وتسخيره لتنعيم الإنسان وتكريمه فنحن معجبون به، كذلك نحن معجبون بالقدرة التنظيمية التي جعلت الإدارة فنًا رفيع المستوى، وأبدعت أساليب لمنع الطغيان الفردي والهوان السياسي، وإن كان الغربيون جعلوا هذه الثمار حكرًا على الرجل الأبيض.

ولا أستحي من أن أسأل نفسي وقومي: أين كنا حين استخرج الأوربيون النفط من أرضنا؟ ماذا كنا نصنع؟ وأية ثقافة كانت تملأ أدمغتنا؟

أؤكد، وأنا من علماء الدين، أن الصحابة تجهل تسعة أعشار الفكر الديني الذي شُغلنا به! ونمنا فيه وصحونا عليه!

وأؤكد أن نظم الحكم في بلادنا كانت أشبه بنظم الحكم في فارس والروم علي عهد سلفنا الفاتح العادل الذكي.

وأؤكـد أن اللغة العربية في الجاهليـة الأولى كانت أضوأ وأنصع منها في الأعصار النكدة الأخيرة.

إن مجددي الإسلام بذلوا جهودًا جبارة ليعود إلينا الوعي الغائب! ومن عجب أن البعض الآن يفتح فمه لسبهم، وينتقص أقدارهم، إننا لم نستشف -بعدُ- من عللنا.

وقـد مضت حضارة الغرب فـي طريقها لا يَثنيها شـيء، غير أن الاسـتغراق فـي الدنيا لا يحقـق الخير لا للفـرد ولا للمجتمع، وقد كرع (أبو نواس) من اللذة حتى آخر قطرة، ثم اسـتيقظ من سكرته يقول:

إذا عرف الدنيا لبيبٌ تكشفت   له عن عـدوٍّ في ثياب صديق!

وكذلك يفعل الخراب الروحي، وخواء الإيمان بأوروبا وأمريكا، إن الجماهيـر تشـعر بالقلـق والضيـق، ولأثبتْ هنا كلمـةً للأديب الكبيـر الأسـتاذ أحمد بهجت كتبها وهو يـزور (لندن)، يصور أثر هـذه الحضارة، قـال: «عيون الناس هنا ملونة، وبشـرتهم كشـمع مسقيّ بالدم، وابتساماتهم حاضرة وجاهزة لكل نظرة وأي سؤال.. رغـم ذلـك، ثمة طيف غامـض من الكآبة يلـوح وراء ألـوان العيون والبشـرة، ويتبدَّى في هذا الصمت الـذي يغرقون فيه حين يركبون المترو أو الأتوبيس.

هنـا لا حـد لجمال النـاس، ولكنـه جمال يشـبه جمـال الجُزر المنعزلة في المحيط، إن صفحة المياه الزرقاء تمتد بصَمْتِها الفاجع وتحيط بالجزر من جميع الجهات.

رغم العزلة المرشحة ينهض الجمال، ويكتسب الجمال شحوبه من العزلة النفسية، حتى لتعكس أغوار العيون قلقًا يبدو وسط يسر

الحياة وسهولتها مثل حزن غير مفهوم في عرس من أعراس الحياة.

بالنسبة لكثير من الشرقيين تبدو لندن عاصمة مبهجة في الصيف، هي سوق عظيمة للمرح والمتعة والجمال والثياب واللهو والحرية، كيف تفسر إذن هذا البحث الذي قامت به إحدى شركات البحوث وقالت نتائجه: إن مليون بريطاني يعانون من اكتئاب نفسي، وإن من المحتمل أن يُقدِم ثلث هذا العدد على الانتحار بسبب الكآبة.. كيف تفسر أن معظم المصابين بالاكتئاب من النساء؟

استبعد البحث مشكلة البطالة كسبب رئيسي للكآبة.. وأشار إلى المشاكل الزوجية والمنزلية والإنسانية.

عاودت النظر في وجوه الناس.

أهؤلاء مكتئبون؟

إن النظرة السريعة تقول إن الناس تعيش وسط نعيم مقيم في لندن.. كل شيء ميسر، لا صوت للشوارع ولا صوت للناس، وكل ما تريده موجود وحاضر، هناك مكان في الأتوبيس والمترو والتاكسي والقطار، ليست في الحياة اليومية معاناة كالحياة اليومية في مدن العالم الثالث أو الشرق.

إن المدنية الحديثة توفر للناس جهدهم الإنساني وتقوم عنهم بأداء كثير مما كان يقتضي جهدًا بدنيًا أو عضليًا.

والخدمات أكثر من الحاجة إليها، والعرض أكثر من الطلب، والتليفون لا يستعصي عليك، ولا يتكلم معك في الخط أحد غيرك.. لماذا يكتئب الناس إذن وحياتهم تمضي بهذه النعومة والكفاءة؟!

إن الحضـارة الغربيـة تكشـف هنا عن أحد أسـرار الحيـاة.. إن للتخلف مشاكله وللتقدم مشاكله.

وليسـت مشاكل التقدم بأخف في الميزان من مشاكل التخلف، هنـا توفـر الحياةُ للناس وقتًـا يفكرون فيه في حياتهـم وهدف هذه الحياة ومصيرهم بعدها.

وهنا يحس الناس بالوحدة القاسية رغم كل مبهجات العيش.

إن الوضع الصحيح الوحيد للإنسـان أن يكون تابعًا لله لا مستقلًا بنفسه، وأن يسترشد بوحيه لا أن يغتر بفلسفته الخاصة.

ما أضعف الإنسـان إذا لم تسـنده قوة ربه! وما أشقاه حين يحرم بركته!

٩٦ - هل في استطاعة الإسلام أن يقدم حلولًا للمشكلات الكبرى التي تعاني منها الإنسانية اليوم؟

تقع المصائب والمشاكل عندما يفرط الإنسان فيما يجب عليه، أو يستهين بما يمنع منه.. فحوادث الطرق تنشأ غالبًا من السرعة الزائدة عن الحد، أو من التوقف المباغت، أو من خروج المرء عن المسار المحدد له.

ولو تبع الناس التعاليم الصادرة إليهم لوقاهم الله سيئات كثيرة، ولكن:

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ ﴾

(الروم: ٤١)

ولسنا ننكر أن هناك أقدارًا قاهرة تعرض لنا بما نكره، وتفاجئنا بما لا دخل لإرادتنا فيه، وهذه المصائب والمشاكل لا نؤاخَذ بوقوعها، وإنما علينا أن نتصرف تجاهها بثبات وتسليم، لا بجزع وتمرد، فهي بعض بلاء الدنيا الذي نُختَبر به!!

ولكني أستعرض مشكلات كبيرة في عالمنا المعاصر، فأجد أغلبها من صنع الناس.. إنها تنشأ في غياب الإيمان الصحيح، والاستهداء بنور الله، والاستشهاد بالعلامات الخضراء والحمراء التي تعصم من الزلل.

القلق الشديد محنة كامنة وراء الركض الوحشي طلبًا للرزق، إن هؤلاء الراكضين قد يدوسون قواعد الحلال والحرام، بل قد يدوسون العجزة والضعاف كي يصلوا قبل غيرهم.. بم نفسر هذا السعار الذي ملأ الدنيا؟ لا تفسير له إلا الجهل بالله، وبقيامه على الخلق وتدبيره للرزق.

وأذكر هنا جملة من الحقائق الدينية غيرَ خاشٍ من تأويل الجهلة لهــا وانحرافهــم بهــا . . لو كان للإنســان صديقٌ نبيــل الخلق، حلو العشرة، مأمون الوفاء، لجعله واحته الظليلة في صحراء هذه الحياة، أفتكون صلة المؤمن بربه أنزل من هذه الصلة؟ ربه الودود المجيد

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾

(طه : ٨)

إننا نحيا في رحمته الواسعة، ونعمته المبذولة، وبركاته الهامية، ولكن ذلك كله يشــبه العافية التي قيل في تبلد الشعور بها: الصحة تاج على رءوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى.

إنه شــيء مؤسف أن يقل إحساسنا بفضل الله الذي يغمرنا بالليل والنهــار . . ثم يتضاعــف جؤارنا [أي صراخنا] بالشــكوى إذا فقدنا بعض ما نهوى! والغريب أننا نعتبر ما نفقده هو مصلحتنا المؤكدة، أو الخير الذي حُرمناه . . إن مواقفنا مع القدر تكرار لموقف موســى مع الخضر حين اعترض ما يجهل عقباه.

مــع أن القصة ذكرت لتقول لنا: رب ضارة نافعة، رب أمر أنكرنا بدايته وحمدنا نهايته.

﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾

(النساء: ١٩)

هنــاك أبجديــات للإيمــان لــو عرفناهــا لزالــت مشــكلة القلق والاكتئاب والتوتر التي تســود العالم . . وأرى أن الغرور البشــري أو إحساس الإنسان بأنه يقوم وحده، من وراء تلك المشكلة.

لقد خُيل إلينا مع التقدم العلمي الجاف أننا مديرو هذا الكون ومالكو زمامه . . وأن الإنســان يســتطيع المُضيَّ وحده إلى هدفه دون صحبة من رعايةٍ عليا، أو مساندة من رب قدير، وهذا هو الغباء المحض.

إن المســاحة التي تعمل فيها إرادتنا الحــرة ضيقة جدًا، حقًا هي موجــودة، بيد أنها محكومة بظروف لا دخل لنــا فيها مذ ولدنا إلى أن نمــوت، مــا أغبــى الســمكة التي تظن أنهــا صنعت ميــاه البحار والمحيطات، وأنها صنعت الخياشــيم التي تســتخلص بها أنفاسها وسط الماء!!

الواقــع أن الخطط التي تحكم حياة البشــر خفضًــا ورفعًا وضيقًا وســعة - جزءٌ من الخطــط التي تحكم الفضاء وتقلــب كواكبه بين شروق وغروب.

مبتدؤنا ومنتهانا وما بين ذلك يشرف الله عليه:

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

(الملك: ١)

﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾

(المؤمنون: ٨٨)

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (القصص: ٨٨)

فمــا معنى تجاهــل هذا الواقــع، والانطلاق في الدنيــا دون وعي ودون غاية؟

الإيمان بالله وصفاته هو -لا غير- حل تلك المشــكلة، والإسلام يعرِّف الناس بربهم على نحو رائع مقنع مشــبَّع، يغمر اللب والقلب بهُداه ويجعل المرء إذا كرب [أي أصابه كرب] فزع إلى الصلاة.

ثــم هو ينظر إلــى ما أصابــه وما أخطــأه عارفًا: من يدبــر الأمر؟ فيقــول: «اللهــم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لمــا منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد».

وعنــد هــذه الجملــة الأخيــرة نقف قليــلًا ؛ فأصحــاب الحظوظ الحسنة قد يكثرون أو يقلون في هذه الدنيا ، غير أن مجرد وجودهم يثيــر الغيرة والتســاؤل : لماذا أوتوا هذا الثــراء أو هذا التقدم أو هذا الرجحان ؟

ويؤكد الإســلام أن هذا الجد لا يجدي أصحابه شيئًا ، ولا ينفعهم عنــد الله أبدًا ، إنه بعض ما يُســاءلون عنه يوم الحســاب ، أو هو جزء من الاختبار الذي يكون للبعض بالجمع وللبعض بالطرح ، ولا امتياز هنالك ! ورب كاســية في الدنيا عارية يوم القيامة ، وذلك من ثمرات الإيمان بيوم آخر .

ومــن المشــكلات التي يشــكو العالم منهــا الفقــر المتوطن في بيئات كثيرة ، وأُحبُّ أولًا أن أحدد المفاهيم حتى تنضبط الأحكام ، أعرف موظفًا في وزارة العدل يقوت أسرة كبيرة ، عُرضتْ عليه يومًا مئة جنيه كي يدع أحد الخصوم يســتولي على وثيقة تفيده في ملف تحت يده ، وأبى الموظف الشــريف مع أنه كان يبيت طاويًا ليعشي أولاده ، وكان بحاجة إلى جنيه واحد لا إلى مئة ! !

هــذا الفقير وأمثالــه هم الذين قال الدين عنهم : إنهم ســواد أهل الجنة .

وأعــرف أن الزعيم محمــد فريد فقد مــا كان يملك من أرض في سبيل أسفاره كي يعرض شكوى وطنه من الاحتلال الإنجليزي ، هذا فقر يذكرنا بالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار الذين ضحوا بما لديهم في سبيل عقائدهم .

وأعرف رؤساء كانوا يملكون القليل أو ما كانوا يملكون شيئًا ، فلما ولوا الحكم فاضت أنهاره عليهم سمنًا وعسلًا ، فأضحوا هم وأقرباؤهم وأصدقاؤهم ومن يلوذ بهم أصحابَ جاهٍ عريضٍ ومالٍ ممدودٍ !

هؤلاء الأغنياء من سحتٍ هم الذين قال الدين عنهم: إنهم جمهور النار، وبئس القرار.

لكن هناك فقرًا نشأ عن آفات عضوية في الكيان الإنساني والملكات التي زُوِّد بها أصلًا، وهو الفقر الذي ينتشر في الأقطار المتخلفة، أو في أرجاء العالم الثالث، إنه فقر تعوُّدٍ وصعلكة، وهو فقر ينكره الدين، ويعد أصحابه آثمين، أو عجزة ملومين!

إن الله سبحانه يسَّر كلَّ ما في الأرض من خير للإنسان، ومكنه من ارتقائه، ولم يطلب منه بإزاء ذلك إلا أن يعرف حقه ويشكر فضله، فإذا جاء امرؤ أو جاءت شعوب، وتجاهلت هذا البذل، ورأت أن تعيش عاريةً بدل أن تكتسي، أو جائعة بدل أن تطعم، فهي شعوب مجرمة.

وقد رأيتُ ناسًا ينتمون إلى الإسلام -وهو انتماء مريب- يشبهون الثعالب التي تأكل من فضلات الأسود، تراهم أمام قوى الكون وأسراره حيرى، لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلًا.

إذا جاءهم الغيثُ شبعوا.. إذا هاجمهم الجفاف تضوروا وتسولوا.. لو وضعت مفاتيح الكنوز بين أيديهم لعجزوا عن إدارتها، وبقوا وقوفًا أمام خزائنها المغلقة.. هؤلاء جديرون بالفقر يقينًا.. وعلاجهم يحتاجٍ إلى تغيير نفوسهم.

وإذا كان هؤلاء محنةً في الميدان الاقتصادي فهم كذلك محنةٌ في الميدان السياسي.

ذكرتهم وأنا أقرأ الكلمات التي كتبها أنصار زعيم المعارضة الفلبيني الذي قُتل في مطار (مانيلا).. لقد وضعوا فوق رفاته هذه الجملة: «لا مكان للطغاة لو لم يكن هناك عبيد». نعم، إنَّ أي فرعونٍ لا يوجد إلا حيث يكون الأوغاد والأذناب.

والفقـراء من هـذا الصنف يمـدون أكفهم في الأزمات، وباسـم الإنسـانية قد يضع الأقوياء في أيديهم بعض ما يستبقي الحياة، ولا عليهم! فتبقى أيديهم السـفلى وأيـدي الأقوياء هي العليا، لكن إلى متى؟!

إن الحل لمشـكلة الفقر هو العمل لا الاسـتجداء.. هو فهم قوله تعالى للناس:

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾

(الأعراف: ١٠)

وذلـك يتطلـب تغييـر النفـوس لتنتج بـدل أن يكـون قصاراها الاستهلاك

والمعاناة هي سلم الكمال، ويعجبني قول أبي الطيب:

لولا المشقة ساد الناسُ كلهم الـجـود يُـفـقِر والإقـدام قَـتَّـال

وشـعوب العالم الثالث تَحسِبُ السـعد والنحس طوالع فلكية! أو كما صور الأسـتاذ مصطفى أَمين: يحسب أحدهم أنه يجلس على كرسـيّ فـي مقهًى، وكمـا يصفق بيديـه طالبًا من السـاقي: «واحد شاي» يصفق طالبًا «واحد حقوق إنسان» أو «واحد حريات شعوب» أو «واحد عدالة اجتماعية»!!

ولنـدع مشـكلة الفقر فطالمـا كتبنا فيها، بل اسـتفتحنا حياتنا الأدبية بالخوض في مآسيها.

ولننظر نظرة خاطفة إلى مشكلة أخرى هي السلام، وهي مشكلة قـد يـؤدي تجاوزها إلى أن يفقـد العالمُ حياته وحضارتـه كلتيهما، بعدما أصبحت أدوات الفتك ذريعة إلى إبادة جماعية.

والساسـة الذين يتحدثون عن السـلام لهم منطـق عجيب! فبنو

إسرائيل ينشدون السلام بعد أن يدمروا الوجود العربي في فلسطين، ويضعوا الخطة لإقامة هيكل سليمان على أنقاض المسجد الأقصى ! !

والروس [في الثمانينات] ينشدون السلام بعد ابتلاع أفغانستان إلى جانب آسيا الإسلامية كلها، واعتبار الدين خرافة لا معنى لبقائها !

وجنوب أفريقيا [وقت الفصل العنصري] تطلب السلام بعد إخماد أنفاس الزنوج وحرمانهم من منزلة البشر أو من مكانة الجنس الأبيض.. والأمريكيون يطلبون السلام بعد تأييد اليهود ودعم حقهم في بناء المستعمرات على الأرض العربية وقولهم: خُلقتْ إسرائيل لتبقى ! إلخ.

إن العالم أمامٍ لون من النفاق والتبجح يستحيل أن يبقى معهما سلام.. العدل أولا ثم المطالبة باحترامه، والتسلح للذود عنه.

ويستحيل أن يوجد سلام ! ما حَكَمَ الدنيا منطقُ الغابات.

إن القرآن الكريم ناشد أهل الإيمان أن يحرصوا على السلام، ويستريحوا إليه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾

(البقرة: ٢٠٨)

فماذا يحدث إن أعرضوا عن هذا النداء؟ ستمتلئ الأرضُ بالأحزان والخراب:

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾

(محمد: ٢٢، ٢٣)

لقد قرأتُ قصصًا أليمةً عما يصيب الرجال والنساء والأطفال في أثناء الحروب من أسًى وضياعٍ يهتكان الأستار، ويسترخصان العار! ورأيت صورًا قابضةً مبكيةً للجثث على عرض الطريق أو تحت الأنقاض، أمست رفاتا هامدًا وولت عنها بشاشة الحياة وآمالها العراض.

إن الحرب شيء كريه حقًا، والويل للمجرمين الذين يشعلون نارها ويحتقرون آثارها.

وفي الأديان السماوية كلها لم يأذن الله بحرب عدوان، وإنما أذن في حرب تُحمى بها الحقوق وتصان الحقائق، وتبقى فيها بيوت الله قائمة لعبادته وحده.. يقول الله تعالى:

﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗا﴾

(الحج: ٤٠)

ورب البيت لا يطالب بالاستسلام للِّصّ المغير إيثارًا للسلام، وصاحب العقيدة لا يكلَّف بتركها تحت بريق السيوف.

وإذا خلصت النيات يمكن إقامة مؤسسات عالمية للحفاظ علي السلام، بعد غسل النفوس من الأثرة والبغي، وإشعارها بأنها أولا وآخرًا من الله بدأت وإليه تصير.

٩٧- بم تفسر النكسات التي أصابت الأمة الإسلامية بدءًا من الخلاف الداخلي بين عليٍّ ومعاوية حتى يومنا هذا؟

أجمع أولو الألباب من عدو وصديق على أن الإسلام عقائد وشرائع، وعبادات ومعاملات، وأخلاق ونظم وتراتيب إدارية وتقاليد اجتماعية.. وأنه يكلف أتباعه بتطويع الشئون العادية لخدمة ذلك كله.

وكنا في أثناء دراستنا الإسلامية نعرف الفرق بين الإسلام والفكر الإسلامي، وبين الإسلام والحكم الإسلامي.. الإسلام وحيٌ معصومٌ لا ريب فيه، أمَّا الفكر الإسلامي فهو عمل الفكر البشري في فهمه، والحكم الإسلامي هو عمل السلطة البشرية في تنفيذه، وكلاهما لا عصمة له.

وعندما يخطئ مفكرٌ فإنَّ خطأه لا يبقى طويلًا حتى يستدرك عليه مفكر آخر، وعندما يخطئ حاكم، فإن زلته لن تطول حتى يصوبها ناقد راشد.

والأمة الإسلامية -بفضل الله- لا تُجمِع على خطأ، وجهاز الدعوة بها حسَّاس، وهو عن طريق التعليم والأمر والنهي ينصف الحق.

ولما كانت هذه الأمة حاملة الوحي الخاتم فإن القدر يؤدبها إذا استرخت أو فرطت حتى تلزم الصراط المستقيم، ويتعهدها بالمجددين الذين يغارون على حقائق الوحي وسبل فقهه وأساليب حكمه.. قال تعالى:

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾

(الأعراف: ١٨١)

ومن هذا التقديم يظهر أنه لا غرابة في وجود أخطاء في تاريخنا الثقافي والسياسي، وإنما الغرابة في التستر على هذه الأخطاء أو الاستحماق في معالجتها والتعفية على آثارها، وجمهور المسلمين يعلم أن سلفنا الأول شغله قتال الاستعمارين الرومي والمجوسي، ولعله أشرف قتال عرفته الدنيا، ولكنه يشعر بغضاضة وألم لما أعقب ذلك من قتال داخلي بين المسلمين أنفسهم كانت له آثار بعيدة المدى على حاضرهم ومستقبلهم.

وجمهور الفقهاء والمؤرخين والدعاة يؤكد أن علي بن أبي طالب -الخليفة الرابع- كان إمامَ حقٍّ، وأن معاوية بن أبي سفيان كان يمثل نفسَه وعصبيته في خروجه على عليّ.. وشاء الله أن يكسب معاوية هذه المعارك، ومن ثم تحولت الخلافة الراشدة إلى مُلكٍ عَضوض في بني أمية.

ومع أن هذا التحول كان هزيمة للحق، وضربة موجعة للمثل العليا إلا أنه من الغلو المرفوض تضخيم نتائجه لما يأتي:

(أ) إن الخلفاء أو الملوك الذين ولوا أمور المسلمين بطريقة غير صحيحة أعلنوا أن ولاءهم للإسلام، وأن التغير في أشخاص الحاكمين لا يعني التغير في القوانين أو الأهداف الإسلامية، ومن أجل ذلك استأنفوا الجهاد الخارجي، كما تركوا للفقهاء حرية الحركة ما لم يمسوا سلطانهم في الزعامة.

(ب) إن العلم الديني مضى في طريقه يوسع الآفاق ويربي الجماهير، ويقرر الحقائق الإسلامية كلها من الناحية النظرية، أي

إن الإِسلام الشعبي مع ازوراره عن السلطة بَقي قادرًا على الامتداد والتأثير.

(ج) مع أن الدولة كانت عربية، تتعصب لجنسها فإِن الجماهير والت تعاليم الإِسلام وحدها، وألقت قيادها في أغلب العواصم لفقهاء ودعاة مربين من الأعاجم!

وأجدني هنا مسوقًا لتوكيد حقيقة مهمة: إن الجنس العربي له خصائص رفيعة رشحته لظهور الإِسلام فيه، واختيار النبوة منه، وهو إلى جانب ذلك جنس له نقائص مثل الاعتزاز بالنسب إلى حد السخف وازدراء الحِرَف من فلاحة وصناعة، والحرص على الإِمارة ولو بطريق اللف والخطف.

وقد أفاد الإِسلامُ من خصائصه، وتضرر من نقائصه، ومن أجل ذلك نريد أن نضع فواصل بارزة بين التعاليم الإِسلامية والتقاليد العربية، فإِن الأخيرة غلبت الأولى فى مجالات كثيرة.

إن أسرتين عربيتين احتكرتا في ذراريهما مهامَّ الخلافة العظمى بضعة قرون إلى أن سقط الإِسلام بحكامه هؤلاء تحت وطأة التتار في بغداد، وتحت وطأة الصليبيين في الأندلس.. بأي منطق وقع ذلك؟!

إن دينًا عالمي الشرائع والشعائر لا يحتمل هذا السفه.

وجاء العثمانيون فقلدوا العرب.. ولماذا يكون عثمان التركي أقل من حرب أو هاشم المولودين في بطحاء مكة؟ لقد بقيتْ هذه الغلطة حتى أنزلت لواء الخلافة عن الآستانة وحلت بالإِسلام نكبة هائلة مهينة.

وأرى أن الــروح القبلية عند العرب كانــت من وراء هذا الانحدار كله، قديمة وحديثة، وعلى العرب أن يحترموا الإِسلام، وليس على تعاليم الإِســلام أن تلين للتقاليد العربيــة، والعرب -مع بعض الأمم القديمــة- كانوا يؤخرون المــرأة، ويضيقون بالأنثــى! كان الهنود يحكمــون علــى الزوجــة أن تنتحر بعد وفــاة زوجهــا! وكان عرب كثيرون يئدون البنت بعد ولادتها!!

وجاء الإِسلام فأعلن حربًا شعواء على هذه التقاليد الهمجية، إلى أن رد للمرأة كرامتها، وصان حقوقها المادية والمعنوية.

لكن الاســتهانة بالأنوثة بقيتْ كامنةً في النفوس، تنشــئ تقاليد وتمحــو أخــرى حتــى كادت تعاليم الإِســلام تُطوى وتحــل محلها التقاليد العربية الأولى.

وظهــر ذلــك أول ما ظهر فــي حرمان المــرأة مــن التعليم، ومن حرمانها من غشــيان المســاجد، والصلاة في الجماعة، وقد وازنتُ بيــن النصوص الــواردة والشــروح المصاحبــة لها فرأيــت النقائض المضحكة.

جاء في الصحاح عن أم عطية رضي الله عنها قالت: أمرنا رســول الله ﷺ في الفطر والأضحى أن تخرج العواتق -الشــوابّ البالغات- والحُيَّض، وذوات الخدور -المكنونات في الأستار- ولكن الحُيَّض يعتزلن الصلاة، ويشــهدن الخير ودعوة المسلمين. قلتُ: يا رسول الله، إحدانا لا يكون لها جلباب، قال: لتُلبِسْــها أختُها من جلبابها، أي تستعير من إحدى المسلمات جلبابًا وتخرج لتشهد الجماعة.

قال صاحب (التاج الجامع للأصول في أحاديث الرســول): هذا

كان في سالف الزمان.. أما الآن فلا يجوز خروجهن لما هن عليه من زيادة التبرج، إلا العجائزَ إن كان لهن مكان خاص.

وصاحب (التاج) -غفر الله له- يتابع في هذا الحكم علماء السنة من قبله، فإن شروحهن غالبًا لا تخرج عن هذا المعنى.

والواقع أن أولئك الشراح يذهبون بعيدًا عن مراد الرسول ﷺ، وتجرفهم التقاليد العربية، فينسخون بها أحكام الشريعة، ومقررات الدين.

وفي حديث جابر -وهو في منتهى الصحة- أن امرأة من وسط النساء سفعاء الخدين، استفهمت من الرسول عن بعض ما قال في خطبة العيد.. والسفعاء: الحمراء وزنًا ومعنًى، أو التي في حمرة خدودها سمرة.

وظاهر أن المرأة كانت كاشفة الوجه دون حرج، وهذا أمر يماري فيه المتعصبون لبعض التقاليد الموروثة.. أما تعاليم الإسلام فموضع نظر؛ لأنها تخالف ما ألفوا من تقاليد.

ولستُ أعني بالفقه الاستبحار في تفاصيل العبادات وفروع الأحكام كما يتصور الناس، كلا.. كلا.. إنما أعني بالعلم إدراك الأصول والغايات العظمى لدين الله، وإدراك ما يدعمها من حجج وما يشين غيرها من شبه، والقدرة النفسية على الغرس والحصاد، والكر والفر.

إن العلم -وأعني الديني منه خاصة- أخذ ينحدر، وتقلّ وجاهته، وانصرفت عنه كل الانصراف الطبقاتُ الثرية، أو المرشحة للوظائف العليا، ولم يبق على الوفاء له إلا بعض المغامرين بأولادهم

فــي ســبيل الله ، أو بعض الذين عز عليهم الســير فــي ميدان آخر من ميادين المعرفة فرضوا بما لا محيص عنه ، أو لا مفر منه .

ومــن انفصال العلــم عن الحكــم ورث المســلمون المعاصرون مشــكلتين جديرتين بالنظر العميق ؛ الأولى : هجرة العقول الكبيرة إلى الغرب ، والأخــرى : رداءة الأوعية الحاملة للفقه ، وطلبها للدنيا تحت أقدام المستبدين .

٩٨- هل نجح الإسلام في تحقيق أهدافه خلال تاريخه الطويل؟

عندما قرأتُ هذا السؤال أسرعتُ بالقول: لماذا لا يوجه هذا السؤال إلى الدينين السابقين عليه من الناحية التاريخية؟ هل أحدهما أو كلاهما حقق أهدافه، وفرض على العالم صبغته؟

سكان العالم الآن أربعة مليارات ونصف تقريبًا، فيهم مليار مسلم، ومليار نصراني، ومليار وثني، والباقي شيوعيون! ذلكم هو الانتماء الظاهر الذي يمكن إحصاؤه.

غير أني أنظر في الإجابة من ناحية أخرى، أن الإسلام لا يمثل نفسه عندما يفشل في سَوْق الأحياء جميعًا تحت لوائه، إنه يمثل الأديان كلها في الحقيقة، فمعنى أني مسلم أني أؤمن بموسى كأحد أتباعه الذين عاصروه وأيدوه، وأؤمن كذلك بعيسى كواحد من حوارييه الذين يحبونه وينصرونه، كل ما هنالك أني أضم إلى الإيمان بهذين الرجلين الصالحين إيمانًا برجلٍ آخر هو أخٌ لهما ومُحيٍ لتعاليمهما، رجل تلقَّى عن ربه هذه العبارةَ:

﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾

(فصلت: ٤٣)

فإذا لم ينجح أتباعُ محمد في بسط دعوته على الناس، فمعنى ذلك فشل الدين كله والرسل جميعًا.

هذا عندما يكون الرفض لحقائق الرسالة المعروضة! أما إذا كان الرفض لسوء خلق العارض وفقدانه الوعي الصحيح، فإن اللوم أو التساؤل لا يوجه إلى الإسلام، بل إلى الأمة التي أساءت البلاغ، وشانت المبادئ التي تحملها، ويبدو أن ذلك هو المقصود من السؤال.

وإذا كان الأمر كذلك فإن السؤال يجب أن يصاغ على هذا النحو :
هل نجح المسلمون في خدمة رسالتهم خلال القرون الأربعة عشر ، أم كان فشلهم أغلبَ ؟

ومع أني شديد اللوم لأمتي ، دائم التقريع لها فإنني لا أستطيع أبدًا الزعم بأن اليهود أو النصارى كانوا خيرًا منها حالًا ، ولا تخدعني الهزائم السياسية المعاصرة عن تقرير الحقيقة . . فلا يزال المسلمون برغم جراحاتهم الخطيرة أَولى بالله ، وأعرف برسالاته ، وأملَكُ لأسباب العافية ، وأحق بالبقاء .

وما قدموه للعالم ، وما يُنتَظر منهم تقديمُه يرجِّح كفتهم ، ويُعلِي حجتهم .

إن الإسلام انتقل بالحياة البشرية نقلةً حاسمةً في عدة مجالات :

(أ) نقَّى عقيدة الوحدانية من كل شوائب الشرك .

(ب) رفض أيَّ عنصر في الإيمان يناقض العقل .

(جـ) أقر المساواة في الحقوق والواجبات على اختلاف الألوان والأديان .

(د) خفف من ويلات الحروب وحرَّم الدمار الشامل .

ومع ما تعرض له التاريخ الإسلامي من مد وجزر ، وذبول وازدهار ، فإن الأمة الإسلامية فرضت طابعها المتميز على الفكر البشري ، وجعلت خصومها يراجعون أنفسهم ، ويجمِّدون بعض مواريثهم أو يتخلون عنها .

كانت صورة الألوهية مفزعة في كلمات بعض المتحدثين عن الله إذ يبدو رب العالمين وكأنه شخص حاسد ذاهل يخطئ ويندم ويجهل ويتراجع ، ويفتقر إلى من يرشده ويصحح له عمله .

تأمل في هذه العبارات : لمَّا قرر الله الانتقام من بني إسـرائيل بعد عبادتهم للعجل قال موسـى له : ارجع عن حموِّ غضبك ، واندم على الشر بشعبك ! ! فندم الرب على الشر الذي قال إنه يفعله بشعبه ! !

وفي مكان آخر : فندم الرب واغتاظ لما أغضبه بنوه وبناته .

فندم الرب على أنه مَلَّك « شاول » على إسرائيل !

الـرب كجبار يبرز ، وكرجل قتـال يثير غيرته ، ويهتف ، ويصرخ ويظفر على أعدائه .

سـطع دخان مـن أنفـه ، ومن فيه نـار آكلـة ، جمر متقـد ، طأطأ السماوات والضباب تحت قدميه ، ركب على كروب وطار ، وخطف على أجنحة الرماح . . إلخ .

وقد يعجب المرء عندما يرى أن الله أخرج آدم من الجنة غيرةً منه أو خوفًا من مزاحمته له ! !

والنص الوارد أنه حظر على آدم الأكلَ من شـجرة المعرفة خشية أن يكون مثله .

إن عقيـدة الوحدانيـة والكمال المطلق لله سـبحانه وتعالى كما عرضها المسـلمون ، قهرت وبهرت وجعلت العالمين يسـتكينون إليها ويتجاهلون ما عداها أو يذكرونه بحياء وإغماض .

وهذا أثر إسلامي لا مثيل له .

وقـد غالـى المسـلمون بالحكم العقلـي ، وقرروا أن مـا يرفضه العقل يسـتحيل أن يكون دينًا . . بل هو أهواء البشـر . . وهذه النزعة الإسـلامية شقت طريقها إلى مستقبل الإنسـانية ، وتخاذلت أمامها الملل والنحل .

ويسـوؤنا أن نتهم الحضارة الحديثة بأنها لا تزال تحترم التفرقة

العنصرية، وتتعامل مع الأجناس الملونة، ومع معتنقي الإسلام خاصة بمشاعر الضغن والزراية!

إن القوانين -من الناحية النظرية- تُلغِي هذه التفرقة، أما من الناحية العملية فالحيف ينزل بالضعاف من المسلمين دون حرج، وقد أصدرت هيئة الأمم المتحدة ٢٥٠ (مئتين وخمسين) قرارًا لمصلحة أهل فلسطين، لم ينفَّذ منها قرار واحد!

ولم يعرف المسلمون البتة حروب الإبادة الجماعية ولم يعرف العالم فاتحًا أرحم من العرب، بل إن الأكراد والأتراك المسلمين كانوا أعفَّ ألف مرة من الدول الأوروبية الغابرة والحاضرة على سواء.

وطيبةُ المسلمين إلى حد الغفلة المعيبة هي التي تجعلهم ينسون ما حل بآبائهم وإخوانهم في أيام نحسات.

لقد غزا (نابليون) مصر والشام فقتل في الشام أربعة آلاف أسير بعد ما أمنهم على حياتهم.

واستحرَّ القتلُ بسكان مصر في الوجهين البحري والقبلي والعاصمة نفسها حتى اهتز عدد السكان[٨]، ولا يريد أن يذكر هذا أحد.

ويظهر أن اغتيال الأسرى على كثرتهم داء قديم، فإن صلاح الدين الأيوبي أرسل إلى (ريتشارد) ملك إنجلترا -وكان على رأس حملة صليبية تقاتل المسلمين في الشرق- بفدية كبيرة ليفك قيود هؤلاء الأسرى فماذا حدث؟

إليك ما كتبه (ستيفن رنسيمان) في الجزء الثالث من (تاريخ الحروب الصليبية) بعدما شرح مراوغات (ريتشارد) وتعنت

---

(٨) يقصد: نقص عدد السكان نقصانا واضحا. (المجلة)

مفاوضيــه، قال: أضحى (ريتشــارد) حريصًا على أن يغادر عكَّا وأن يزحف على بيت المقدس، وصار الأســرى المســلمون مصدر حيرة له، ثم انشــرح صدره للخلاص منهم بعدما دبر اعتــذارًا رآه مقبولًا، قــال: إن صــلاح الديــن نقض عهــده معه، ومــن أجل ذلــك فقد أمر بالإجهاز على ٢٧٠٠ (ألفين وســبع مئة) أسير من الذين بقوا على قيد الحياة من حامية عكَّا! قال المؤلف: «واشــتد حماس عســاكره للقيام بهذه المجزرة، وحمدوا الله في جزل وســرور» حسبما يروي المدافعون عن ريتشارد - فقد هيأ لهم فرصة للانتقام لرفاقهم الذين ســقطوا أمام المدينــة أثناء الهجــوم عليها، ولقي زوجات الأســرى وأطفالهم مصارعهم إلى جوار رجالهم!

ولــم يُبــقِ الصليبيون إلا على بعــض رجال يســتفيدون منهم في أعمــال الســخرة، وبعــض الأعيــان، أما الباقــون فقد فنــوا جميعًا، وشــهد المســلمون المرابطــون في أقــرب المعاقل إلى عــكا ما قد حدث فاندفعوا لإنقاذ إخوانهم وأهليهم، وعلى الرغم من أنهم ظلوا يقاتلون حتى حلول الظلام فقد عجزوا عن الوصول إليهم.

ولما انتهــت المذبحة غادر الإنجليز البقعــة بما تناثر عليها من الجثث المشوهة، وأضحى بوسع المسلمين أن يقدموا للتعرف على أصدقائهم الذين استشهدوا.

لندع هذا المشــهد الكئيب، ولنتــرك دلالاته البينة، ولننتقل مع (ســتيفن رنسيمان) إلى مشهد آخر ذكره في الجزء الثاني من كتابه بعدمــا انتصــر صلاح الدين فــي حطين.. قال: «وقَبِــل صلاحُ الدين أن يضع شــروط الصلح، فَعَرَضَ أنه بوســع كل مســيحي أن يفتدي نفســه، على أساس عشــرة دنانير للرجل، وخمســة دنانير للمرأة، ودينــار للطفــل، وعندئــذ أشــار (باليان) إلــى أن بالمدينــة حوالي

عشـرين ألفًا من الفقراء، ليس بوسعهم أن يؤدوا هذا المبلغ، أفلا يجوز للسلطات المسيحية أن تدفع مبلغًا إجماليًا لافتدائهم؟ ورضي صلاحُ الدين بأن يقبل مئة ألف دينار عن جميع العشـرين ألفًا، غير أن (باليـان) أدرك أنـه ليـس مـن المسـتطاع تحصيل هـذا المبلغ الضخـم، فتقرر إطلاق سـراح سـبعة آلاف مقابل دفـع ثلاثين ألف دينـار، وبناءً على أوامر (باليان) ألقى العسـكر السـلاح، وفي يوم الجمعة ٢ أكتوبر سـنة ١١٨٧م دخل صـلاح الدين بيت المقدس، ويوافق هذا التاريخ السـابع والعشـرين من رجـب، الذي يجري فيه الاحتفال بعيد الإسـراء، حين أُسـري بالنبي إلـى بيت المقدس، ثم ارتقى إلى السماء.

والواقـع أن المسـلمين الظافريـن اشـتهروا بالاسـتقامة والإنسـانية، فبينما كان الفرنج منذ ثمان وثمانين سنة يخوضون فـي دماء ضحاياهـم، لم تتعـرض الآن دارٌ من الـدور للنهب، ولم يحـلَّ بأحد من الأشـخاص مكروه، إذ صـار رجال الشـرطة، بناءً على أوامر صلاح الدين، يطوفون بالشـوارع والأبواب يمنعون كلَّ اعتداء يقع على المسيحيين، وفي تلك الأثناء حرص كل مسيحي علـى أن يلتمـس المالَ اللازمَ لافتدائه، وأخـذ (باليان) كلَّ ما في بيـت المال من الأموال لدفع ما وعد به من أموال الافتداء، وقدرها ثلاثـون ألف دينار، ولم يخرج الإسـبتارية والداوية عن شـيء من أموالهـم إلا بصعوبـة، ولـم يحفـل البطريرك وهيئة الكنيسـة إلا بأنفسـهم، ودهش المسـلمون حينمـا رأوا البطريـرك، (هرقل) يؤدي عشرة دنانير، مقدار الفدية المطلوبة منه، ويغادر المدينة، وقد انحنت قامتـه لثقل ما يحمله من الذهب، وقد تبعته العربات التي تحمل ما بحوزته من الطنافس والأواني المصنوعة من المعادن

النفيسة، وبفضل ما تبقّى من منحة الملك (هنري الثاني) تقرَّر إطلاقُ سراحِ سبعة آلاف من الفقراء، وقد كان يصح أن ينجو من الاسترقاقَ ألوف عديدة من المسيحيين لو أن الإسبتارية والداوية والكنيسة كانوا أكثر سخاء، ولم يلبث أن تدفق من أبواب المدينة طابوران من المسيحيين، تألف الأول من أولئك الذين افتدوا أنفسهم، أو تم افتداؤهم بفضل جهود (باليان)، أمَّا الطابور الثاني فشمل أولئك الذين لم يستطيعوا افتداء أنفسهم؛ ولذا توجهوا إلى الأسر، ومن المناظر التي تدعو للأسى والحزن، ما حدث من التفات (العادل) إلى أخيه (صلاح الدين) يطلب منه إطلاق سراح ألف أسير، على سبيل المكافأة عن خدماته له، فوهبهم له (صلاح الدين) فأطلق (العادل) على الفور سراحهم، وإذا ابتهج البطريك (هرقل) لأن يلتمس هذه الوسيلة الرخيصة لفعل الخير، لم يسعه إلا أن يطلب من (صلاح الدين) أن يهبه بعض الأرقاء ليعتقهم، فبذل له (صلاح الدين) سبع مئة أسير، كما جعل صلاح الدين لباليان خمس مئة أسير، ثم أعلن صلاح الدين أنه سوف يطلق سراح كل شيخ، وكل امرأة عجوز، ولما أقبل نساء الفرنج اللائي افتدين أنفسهن، وقد امتلأت عيونهن بالدموع، فسألن صلاح الدين أين يكون مصيرهن، بعد أن لقي أزواجهن أو آباؤهن مصرعهم أو وقعوا في الأسر، أجاب بأنه وعد بإطلاق سراح كل من في الأسر من أزواجهن.

وبذل للأرامل واليتامى من خزانته العطايا كل بحسب حالته. والواقع أن رحمته وعطفه كان على نقيض أفعال الغزاة في الحملة الصليبية الأولى».

إن الأمة الإسلامية -برغم تعاسة الظروف التي ألمت بها- أرست

قواعد خير كثير في هذه الحياة، وما يبقى لها بعد معادلات الحذف والإضافة يزينها ولا يشينها.

وأعرف أن خصومها أصفق وجوهًا وأقدر على فعل المناكر ودفنها فلا تعرف، وأجرأ على تلمس العيوب للبُرَآء، والإصرار عليها حتى تثبت.

وفي عصرنا هذا أمرَ رجلُ دينٍ أحمق في غيانا بأمريكا الوسطى ألف شاب بالانتحار الجماعي، فماتوا كلهم في صمت!! ولو فعل شيخ مسلم واحدًا في المئة من هذه المأساة لدمغت الأمة الإسلامية بعار لا تَقدِر على الإفلات منه، ولنُسب للإسلام كلُّ شر!

وما ننكر أن هناك منصفين صارحوا بفضل الأمة الإسلامية على العالم، وآخر ما قرأنا لهؤلاء، كتاب (شمس العرب تسطع على الغرب) لأستاذة ألمانية طاهرة الذمة.

صحيح أن المسلمين اليوم في أوضاع بالغة السوء، وصحيح أن فساد الحكم حقبًا طويلة من وراء هذا الانحدار، بيد أن الأمة الجريحة لا تزال أنبل من قاتليها، ولا تزال ثروتها الروحية أجدر بالتقدير، وأحق بالتقديم.

إن الذكاء الأناني في أوروبا وأمريكا سيجر الويل على أصحابه وقد يجره على العالم كله ما لم يرحمنا الله.

٩٩- كيف تتصور مستقبل الإسلام في عالم الغد؟

حاضر المسلمين يقبض الصدر، وقد يبعث على التشاؤم، ولكنني واثق من أن هذه المحنة ستنجلي كما انجلت محن أخرى في أيام مضت.

على أن انجلاء المحن لا يشبه انقشاع السُّحب، نرقبه ونحن مكتوفو الأيدي.. كلَّا، لا بد من عمل جاد وسعي لاغب.. أو كما قلتُ في موضع آخر: لا بد أن يعتنق المسلمون الإسلام يقينًا وخُلقًا ونشاطًا وفكرًا..

أما مع النقائص الموجودة فيستحيل أن يكسب المسلمون خيرًا.

إن أعطابًا نفسيةً وعقليةً أصابت كيانهم بشلل لا تعرفه أمم أخرى، وألحقت برسالتهم مَهَانةً كبيرة.. أقول ذلك وأنا أقرأ كلمات للمهندس (ماهر أباظة) وزير الكهرباء جاء فيها: «إن قطاع الطاقة ظلَّ يبحث منذ خمس عشرة سنة عن سرٍّ صناعة مادة معينة في العازلات الكهربائية دون جدوى، فقد رفضت الشركات الأجنبية -نحو سبع شركات- أن تعطي أسرار هذه التكنولوجيا حتى تبقى المصدرَ الوحيد لها وحتى تبيعها وفق شروطها».

قال الوزير: «ثم تطوع العلماء الصينيون بإخبارنا أن الموادَّ التي تُصنَع منها هذه العازلات موجودة في تربتنا، وأنهم سيرسلون خبراءهم ليرشدونا إليها في بلادنا!!

علماء الصين درسوا طبيعة أرضنا في البحر المتوسط، إنني لم أدهش للخبر؛ لأني لما ذهبت إلى (نواكشوط) عاصمة موريتانيا عرفت أن المياه التي تغذي العاصمة تأتي من آبار جوفية اكتشفها الصينيون، وقاموا بمدِّ أنابيبها إلينا، لقد عرفوا وهم على المحيط الهادي خيرات أرضنا على المحيط الأطلسي!!

قلت لنفسي: إنني أعرض الدعوة الإسلامية كلامًا، وهؤلاء الصينيون يعرضون الدعوة الشيوعية عملاً.. وخامرني حزن عميق.

ومضيت أتابع ما قرأته في موضوع العازلات الكهربية ففوجئت بأمر آخر، لقد تكلم عالم مصري هو الدكتور عصام حسن يقول: «إن مادة الكولين التي تنتج العوازل المطلوبة موجودة في سيناء وفي كلابشة، وإن إمكانات استخدامها قدمت إلى الإدارة المصرية من سنين طويلة، وهي إلى الآن حبيسة أدراج بعض الرؤساء!

قال: وإن العلماء الصينيين لم يعرفوا نبأ هذه المادة إلا من كتابات وبحوث العلماء المصريين التي نشرت في الخارج!».

لقد صدقت هذا التعليق، وأدركت أن المحنة ليست جهلنا، وإنما هي تبلُّد بعض الرؤساء أو هي ما أشرتُ إليه في إجابة سابقة: انفصال العلم عن الحكم في أغلب البلاد الإسلامية.

فالأمر كما قيل:

إن كنت لا تدري فتلك مصيبة   أو كنت تدري فالمصيبة أعظم!

ويظهر أن هناك نوعين من الشلل الجزئي يقطع دورة الإحساس في الكيان الإسلامي العام، ويُقعِد الأمة عن أداء رسالتها الكبرى.. ذاك لو بقي لدينا شعور بأننا نحمل للعالم رسالة كبرى.

إن الوَهَنَ الذي حلَّ بالمسلمين دوَّخهم، وجعل أبصارهم عند مواطئ أقدامهم.

ولكي نطمع في استماع الناس إلينا يجب أن نقول ما يعقل، أو نعقل ما قيل لنا في كتابنا ونكون نموذجًا حسنًا له.

هل من التصور المحترم للإسلام أن يقول بعض (العلماء): الحاكم يمضي في طريقه دون اكتراث بالشورى؛ لأنها غير ملزمة له؟ هل تخدم الفرعونية بأفضل من هذا اللغو!!

هل من التصور المحترم للإسلام أن يقال في حكومته : إنها حكومة الحزب الواحد ؟

إن أقمار التجسس الأمريكية صورت الطائرة الكورية التي أسقطت قريبًا من قاعدة عسكرية روسية، ولا يزال بعض علمائنا يحارب التصوير بضراوة، ويراه وثنية.

وبعضهم حكم بأن وصول الأمريكيين إلى القمر خبر آحاد، لا يفيد العلم، وأن الأمر إشاعة.

ولنترك هذا الهزل إلى آفة تخدش الفكر الديني : إن مناقشة السند أو التمحيص النظري للحكم المرويّ أساس الحكم في القضايا المعروضة، أما ملاحظة الآثار الاجتماعية عند ترجيح اجتهاد على اجتهاد فهي أمور لا يلتفت إليها أحد.

ومن هنا استُبعد الرأي... الذي لا يعتد بالطلاق البدعي.

واستُبعد رأي أبي حنيفة في أن المسلم يقتل في الذمي أو أن المرأة تباشر عقدها، وكان العمدة عند المستبعدين مجرَّد النظر في قواعد الاستدلال، أما استقصاء الأبعاد الاجتماعية لهذه الأحكام الفرعية العملية فلم يرد على البال.

ونحن لا نهوِّن من قيمة الاستدلال في القضايا الاجتهادية، وإنما ندعو إلى احترام التقاليد المستقرة في بيئات كثيرة ما دام لا يصادمها نص، كما نرفض التشبث باجتهاد ما إذا كان يعوق سير الدعوة الإسلامية، فلا وزن لاجتهادٍ فرعيٍّ يعترض انتشار الأصول والأركان.

وإذا رأينا أن الأوروبيين يقبلون الإسلام لو سمحنا للمرأة بالقضاء في الدماء والأعراض، وولاية المناصب العامة فليدخلوا في الإسلام! وليعلموا بمذهب ابن حزم، أليس ذلك خيرًا لنا ولهم؟

وقد أمسى الجهاد فرض عين على كل مسلم ومسلمة بعدما اقتُحمت دار الإسلام من أقطارها، ومن أبجديات الجهاد: العلم بكلِّ ما أودع الله من قوًى في أرجاء البر والبحر والجو، إن هذا العلم الضروري يسبق علومًا كثيرة ظهرت أيام الترف والتفوق، بل لقد أمست علوم اللغة العربية من فروض العين على المثقفين، بعدما تدحرجت هذه اللغة، وأسقطت مكانتها عن عمدٍ.

ومن النفاق أو الجبن شغل المسلمين بنوافلٍ علمية أو عملية قبل استكمال الفروض المهملة.

بناء الأمة الإسلامية من جديد يفرض على السَّاسة والدعاة والفقهاء أن يُمعنوا النظرَ، ويطيلوا التفكير، وأن يحاربوا بجهد متساوٍ الغزو الثقافي الوافد من الخارج والانحرافات الكثيرة المتوارثة من الداخل.

وللأخلاق قصة لا يجوز إغفالها.. هناك أخلاق تنشأ من حسن معرفة الله، أو من صِدْق عقيدة التوحيد، أبحث عنها في سلوك الخاصة والعامة فلا أجدها.

هل أستطيع وصف رجل يخاف الناس ولا يخاف الله، ويسترضي الناس ولا يسترضي الله، ويتوكل على الناس ولا يتوكل على الله، هل أستطيع وصف هذا المخلوق بأنه مسلم؟!

وهناك جملة أخلاق تقوم على محو النفاق وتزكية السريرة وتنضبط بها الأعمال والأحوال، نبَّه إليها النبي العظيم الذي قال: «بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق» [مسند البزار]، إنه أحصى أمارات النفاق في الكذب، وخُلف الوعد، وخيانة الأمانة، ونكْث العهود، والفجور في الخصومة! ماذا يقول المسلم إذا كانت مجتمعات أخرى أحرص منا على الصِّدق والأمانة والوفاء والسماحة؟

ولقد رأيت نظافة القرى والمدن في أمم شتى، ورأيت النظام الصارم يشيع بين مُشاتها ورُكّابها وألقيتُ نظرةً خاطفةً على بلادنا ثم شعرتُ بغُصَّة.

لا أدري ماذا حدث لنا؟ إننا نموت ونميت ديننا معنا!

ورأيتُ عُمَّالًا يكرهون الإتقان، وموظفين يكرهون الخدمة العامة، ورؤساء يُشبعون مركّبات النقص أو عُقَد الوضاعة وينظرون إلى الجماهير من أعلى.. وهم آلهم وعشيرتهم!!

إن قضايا الأخلاق أخطر من قضايا أخرى، لا سيما والخلق عندنا يتركز على الإيمان بالله، ولا يتركز على فلسفات بشرية أو مادية، وذلك يعني أن هدم الإسلام -وهو دينُ أكثرَ من تسعة أعشار العرب- لا ثمرةَ له إلا ضياع الأخلاق يقينًا.

وعندما يقول الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾

(النساء: ١٣٥)

فلا تنتظر عدالة، ولا شهادة نقية من شخص خرب القلب، والواقع أن الذين ينقضون الإسلام ويعبثون بشعائره يهزّون الأخلاق هزّا، وينشئون أجيالًا لا تصلح في حرب ولا سلام.

وليس بقائم بنيان قوم إذا أخلاقهم كانت خرابا!

يجب أن تقوم للإسلام أمة تعمل به، وتعطي صورة صادقة له..

ومن السَّفاهة تكليف العالِم أن يدرس الإسلام مجردًا من سيرة معتنقيه.. وتحميله مسئولية فلسفية عن كفره وإيمانه بعد تلك الدراسة العجيبة.

وأرى أن الصحوة الإسلامية المعاصرة مكلَّفة بتكوين هذه الأمة الجديدة، وإنصاف رسالة الإسلام من هذا البلاء.

ومع تمام هذا التكوين نعرض أنفسنا على ساكني القارات المعمورة، واعتقادي أن النجاح سيكون حليفنا، فإن لصاحب الحقِّ مقالًا، وللحقيقة سناؤها وإغراؤها، وقد سئم الناس ما صحب الحضارة الحديثة من جفافٍ وإباحيةٍ، ومن شرهٍ ووحشيةٍ، ومن بُعدٍ عن الله وكفر بلقائه.

وفي حقائق الإسلام، وشعب الإيمان الجامعة الجليلة ما يغني ويستحق كل حفاوة.

وفي لقائي ببعض الكبار الذين أسلموا، رأيت أن الجانب العاطفي من الإسلام هو الذي اجتذب الانتباه، أو المنطق العقلي للقرآن الكريم، أي إن القوم ينشدون ما ينقصهم.

وهنا ألفت النظر إلى أن بالإسلام أصولًا صلبة، وفروعًا مرنة، وفيه أقوال وآراء نِسبَتُها إلى الناس أقرب من نسبتها إلى رب الناس، والدعاة الراشدون يعرفون واجبهم بإزاء هذا كله.

وأخشى أن يذهب داعية ليطعن في قانون السببية ويزعم أن النار لا تحرق بحرها، وأن السِّكينة لا تقطع بحدها، كما هو مقرر في كتب الكلام عندنا.

أو ليذهب آخر ليقول: لا تقيدوا الحاكم بالشورى، فليس يجب عليه ذلك.

أو يذهب آخر فيقول: لا بد من ضرب النِّقاب على وجوه النساء وحبسهن في البيوت أغلب العمر، فلا تتعلم ولا تعبد، ولا تمشي في الأسواق.

إن أصول الإسلام ومعاقد العبادات والأخلاق هي التي يُدعَى إليها، والناس يتخيرون بعدُ ما يعجبهم من تفاسير ووجهات نظر.

وفي رأيي أن النموذج العلمي الذي يقدمه المسلمون هو الأساس الأول لنجاح الدعوة.

ثم إن الدول الإسلامية الكثيرة يجب أن تتقارب وتُوهي الحدود بينها، ولا بأس أن يبدأ ذلك بأسواق مشتركة أو بتكوين اتحادات إقليمية كما تم بين دول الخليج، ودول وادي النيل، وما يقترح بين دول المغرب الكبير.. على أن يكون الهدف الأهم تجميع المسلمين كافة في كيان واحد، أو جسد روحه الإسلام.

١٠٠ - إلى أي مدًى يمكن أن نقتبس من هذه الحضارة المعاصرة؟

كان رجال التعليم والتربية في اليابان أيقاظًا عندما اتصلت بلادهم بأوروبا في القرن الماضي، أو قل: كان حراس التقاليد الموروثة صاحين عندما قررت اليابانُ الاستفادةَ من التفوق الصناعي الغربي، فقد أعدوا لكل جديد يقتبس مكانه فوق أرضهم، ومساحته المادية والأدبية التي لا يَعْدُوها، وهيمنوا ببصرٍ حادٍّ على الآثار المتوقعة حتى لا تفلت من أيديهم، أو تتحرك بعيدًا عن خططهم المرسومة.

ومع التزام هذا الخط الصارم بقيت الشخصية اليابانية محفوظة السمات ثابتة الملامح، فانتقلت الصناعات الغربية إلى اليابان، ولم يتحول اليابانيون إلى أوروبيين في عقائدهم أو لغتهم أو آدابهم وأخلاقهم.

إنهم فعلوا ولم ينفعلوا وقادوا ولم ينقادوا.

وكانت هناك أديان بينها فجوات؛ البوذية من ناحية، والشنتوية من ناحية أخرى. والأتباع المخلصون تتقسمهم وجهات نظر شتَّى، ومذاهب فقهية كثيرة -إن صح التعبير- بيد أنَّ لونًا من المعايشة السلمية فرض نفسه على الجميع، فإذا اليابانيون كلهم دون حساسيات دينية يتعاونون على إنهاض بلدهم ورفع لوائه، وتمَّ لهم ما أرادوا.

إنَّ للنجاح الحقيقي أساسًا لا يتغير، هو النفس الإنسانية، فإذا استقر هذا المِهَادُ لم يبقَ شيءٌ ذو بالٍ، وقد كان محمد ﷺ أعرفَ إنسان بهذه الحقيقة، فاتجهتْ جهودُه كلها -قبل أي شيء- إلى

داخل الإِنســان تصوغه وتضبطــه وتطمئن إلى قراره ومســاره، وهو يعرف أن هذا الإِنســان ســوف يفرض نفســه على بيئتــه يومًا عندما تنزاح العوائق من أمامه.

ولم يحاول قط الاصطدام بالأســوار الخارجية قبل استكمال هذا الداخــل المهم؛ ومن ثَمَّ ترَك الأصنامَ منصوبةً حول الكعبة عشــرين ســنة، لم يهشم واحدًا منها في معركة طائشة، بل الثابت في سيرته أنه طاف في عمرته في الســنة السابعة حول الكعبة والأصنامُ جاثمةٌ حولها، وفي الأوضاع التي كانت عليها من بدء الدعوة.

أكان ذلك بقيًا عليها، أو توقيرًا لها؟ كلَّا.. لقد كان يعلم أن لها أجلًا لا ريب فيه، وأنها عن قريب أو بعيد ستتحول جذاذًا.

ومن الذي يقوم بهذا التحويل الحاســم؟ الرجال الذين اســتناروا من الداخل، وتربوا على التوحيد الحق.

لقــد عرفوا أن الذباب أقوى من هذه الأصنــام، وأنها لا تثبت في معركة معه.. ألم يتلوا قوله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾

(الحج: ٧٣)

فليتربصــوا بهــذه الأصنــام يومًــا لا ريــب فيــه دون اســتعجالٍ، وليهتموا بداخلهم يتعهدونه فهو الوجود الآتي مع الغد.

ويتساءل أناس: ما هذا التعهد الشاغل المهم؟ ونقول: هو تعهد الوعــي ليكون صحيحًــا، والباطنِ ليكــون نظيفًــا، والخُلُقِ ليكون

عظيمًــا، والإخاء ليكون وثيقًا، والهدف ليكون واضحًا.. فالأمم لا تُبنى بالصور وإنما تُبنى بالحقائق.

إن المنافقيــن أحســن النــاس للمراســم، وقلوبهــم هــواء، أمــا المؤمنون فإن نُضج نفوســهم، وزكاة سرائرهم، هما سر عظمتهم، وسر مآل الأمور إليهم.

ولا يعــرف فــي تاريخ الهــداة رجل مثل محمد ﷺ أحســن صوغ النفــوس وإيقاظ ملكاتها وإدارتهــا بأعظم ما فيها من طاقة، وجعلها تدفع ولا تندفع، وتؤثِّر ولا تتأثر.

فهل نحــن -الدعاة المنتميــن إليه- نفهم هــذا المنهج، ونلتزم منطقــه؟ إن الموجهين اليابانيين كانــوا أذكى منَّا وأقدر في مواجهة المشاكل وهزيمة الصعاب.

نظــرت بحســرة إلــى (الخُلُق الفــردي) فــي الإفادة مــن التقدم الصناعــي العالمــي، ما هذا؟ هذا شــاب يقود ســيارة فارهة، تنهب الأرض نهبًــا، ينــزل منهــا بأناقــة وكبريــاء، ويرمق الشــارع بنظرة اســتعلاء، يشــتري بعض السلع ثم يمتطي ســيارته ويعود من حيث جاء.

إنه ما زاد من الناحية الإنســانية شــيئًا عن الأيام التي كان ســلفه يمشي فيها حافيًا أو منتعلاً.. وما تشرف به أمته ولا أسرته.

وهــذا عامل قادم من وادي النيل ماذا حمل إلى وطنه؟ (فيديو)! إن المســكين جمــد عرق جبينــه وإرهــاق أعصابه في هــذا الجهاز المســلي، وســيحمله منتصب القامــة والهامة؛ لأنه أصبــح به أرفع مستوى، وما درى المسكين أنه بما يحمل نَقَصَ وما زاد.

العــرب في الحضارة الحديثة شــعوب مســتهلكة تتنافس الدول

الصناعية على إلهائها بالأدوات البراقة والمخترعات المريحة.

والدعاة لا يدرون كيف يستنقذون أمتهم المخروبة من هذه الأوضاع القاتلة؛ لأنهم لا يتجهون إلى داخل الإنسان المسلم، يحركون ما توقف من أجهزته، وينيرون ما أظلم من مصابيحه.. إنهم يتحركون نحو الظاهر القريب أو تحته بقليل.

إن قدرة أمَّةٍ ما على الصدارة في الأرض، أو توريث أمة ما قيادة العالم كما يعبر القرآن الكريم، لا يجيء بين عشية وضحاها، ولا يتم بخصائص سهلة، وإنما يتم بشروط معينة أومأ إليها الوحيُ في قوله سبحانه:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾

(الأنبياء: ١٠٥)

لا تظن المدى قريبًا بين ما قَصَّه القرآن الكريم عن ذُلِّ بني إسرائيل قديمًا، وبين تمكينهم في الأرض بعد ذلك. عندما توعد فرعون قوم موسى، وجاء على لسانه:

﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾

(الأعراف: ١٢٧)

قال موسى لقومه:

﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾

(الأعراف: ١٢٨)

ومرت السنون، وتغيرت الأوضاع:

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ﴾ (الأعراف: ١٣٧)

إن ذلك كله لم يتم في أيام قلائل، لقد استغرق عشرات السنين، حتى أمكن وفق سنن الله الاجتماعية أن يرزق العبيد أخلاق السيادة الحقيقية.

والواقع أن العرب أيام البعثة تعَهَّدَتهم بالصقل والتهذيب يدٌ صَنَاع، ومضت بهم في طريق المجد نُبوَّةٌ ملهمة؛ نبوة حولت الماء والطين إلى أزهار ورياحين.

نعم، إن الإسلام حوَّل العرب إلى ربانيين بعدما كانوا شياطين، وجعلهم نماذج تُحتَذى في ميادين العبادات والمعاملات، فكانت قيادتهم خيرًا وبركةً وكانت فتوحهم الفكرية والروحية أندى وأجدى من فتوحهم العسكرية الخارقة.

وعندما سقطت القيادات القديمة من الفرس والروم لم يبكها أحد.. لم يتخلف عن سقوطها فراغ يحاول الآخرون ملأه! بل الذي حدث أن الشعوب تنفست الصعداء، ورأت أن ما جد في ربوعها أولى بالتقدير والاحترام، أو أولى بالرعاية والحماية.

لكن عرب اليوم على غرار آخر، ودعك من التخلف الصناعي والحضاري، ولننظر إلى قضايا اجتماعية وأخلاقية هي من صميم حياتنا الداخلية.

ما تقاليد الزواج عندنا؟ هناك أعراف متبعة أن قبيلة دون قبيلة.. وأن أسرة أعرق من أسرة.. وأن مكانة امرئ ما تنبع من نسبه.. وقد

ساند هذا السلوك الجائر تفكير فقهي يؤكد أن المرأة من بني أمية أو بني هاشم لا يرقى إلى مستواها الرجل من عرق آخر.

أليست هذه هي التفرقة العنصرية التي جاء الإسلام لمحوها؟ هل نستطيع تصدير هذا التفكير إلى العالم؟ وهل نكون صادقين مع الله عندما نزعم أن ذلك دينه؟ وهل يقبله أهل الأرض منا؟

وفي أقطار كثيرة رأيت الشباب يئنّ من غلاء المهور، وأحسست أن العوائق هائلة دون الحلال وأن المغريات كثيرة نحو الحرام، فهل هذا العجز في علاج أهم الغرائز البشرية يعد نصرًا إسلاميًا؟ وهل رسالة أمتنا الاجتماعية تصعيب الطيبات وتيسير الخبائث؟ وهل يهش العالم لتقاليدنا تلك؟

ولا أمضي في سرد أمثلة لتعثر قضايانا الاجتماعية، وإنما أمدّ البصر لقضايانا الخلقية التي لن نستورد لبحثها خبراء أجانب.

شَكا لي شاب ناشئ موهوب وعورةَ الطريق أمامه، فقلت له ناصحًا: امض بمواهبك إلى الأمام دون انتظار عونٍ من أحدٍ.. بل توقع الكَبَدَ والصد؛ لأن البيئات التي نعيش فيها لا ترحب بالموهوبين، ولا تؤتي كل ذي فضل فضله.. إلا كارهة أو مغلوبة.

أغلب الناس يعيش داخل قوقعة من نفسه ومآربه، وقلما يلتفت إلى الآخرين ليسدي عونًا، أو يقدم يدًا.

والطريقة التي يدرسون بها الدين لا تعين على زكاة النفس وسنائها، فالأجرب عندما يرتدي ثوبًا غاليًا جميلًا قد يستر عِلّته حينًا، بَيْدَ أن ذلك لا يشفي سقامه. هكذا نرى الذين يؤدون مراسم العبادات، ولا يهذبون أنفسهم.

الفارق بين الإنسان والحيوان أن الحيوان يتحرك بدوافع حاجاته

الخاصة ولا يحس إلا ذاته ! أما الإنسان فالمفروض أنه يحيا في مجتمع له ضوابطه وآدابه، وعلى المرء أن يحس بنفسه وبغيره معًا، والصورة الدُّنْيَا للسلوك البشري تظهر في أفعال المجرمين الذين لا يهتمون إلا بما يشتهون، أما صور الرُّقي المنشود فتتضح كلما اختفت الأنانية، ونما الإحساس بالغير، والتقدير لحقوقه.

وقد أقام الإسلامُ شعار: (في سبيل الله) ليخلع الإنسانَ من أثرته، ويدفعه إلى ربه؛ فالإنفاق ينبغي أن يكون في سبيل الله، والجهاد ينبغي أن يكون في سبيل الله، والسعيُ في هذه الدنيا ينبغي أن يكون في سبيل الله، بل المحيا والممات جميعًا في سبيل الله.

وهذا الشعار يعني في النشاط العام أمرين: ابتغاء وجه الله، وتحقيق المصلحة العامة، وفقهاؤنا يرون أن حق الجماعة داخل في كل ما هو لله؛ إذ الإسلام يمزج بين الدين والدولة، والعبادات والمعاملات.

والذي حدث في هذا العصر أن المقاييس الأخلاقية في الغرب غالت في حق المجتمع، وقهرت به النوازع الشخصية، وجعلت (المواطن) يرعَى وطنه ومصلحة قومه ورفعة أمته.. إلى آخره، وضبطت بذلك أنانيته الخاصة.

أما المنتمون إلى الدين فإن شعار (في سبيل الله) نُسي، أو تُنُوسِي، في مجال التربية وتُرِكَ سرطان الأنانية يمتد ويتوغل، فماذا كانت النتيجة؟ فُرقة مستغربة بين مجاهدي أفغانستان [إبان حربهم ضد الروس]، وبين محرِّري فلسطين! وسيطرت المآرب على أغلب الأنشطة العامة.. فإذا الشخص الذي يعمل لوطنه في أوروبا أيقظ ضميرًا من مَثِيله الذي ينتمي إلى الدين ولا يفكر في سبيل الله، وإنما يفكر في تنمية ثروته أو دعم مكانته.

إن المبدأ الإسلامي الأول في التربية وهو :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾

(الشمس : ٩)

لا يتحقــق بالدعــوى ولا بالصياح ، وإنما يتحقــق بتطبيق عميق حاسم في شئون الحياة ، وبين جميع الطوائف .

إن (ديجــول) ولِــيَّ نعمة فرنســا الحديثة دُفــن دون الأدغال في قريته ، وامرأته الفاضلة تعيش بين جدران ملجأ يرعى شيخوختها . . علــى حين نــرى من خانــوا أمتهم أو غشــوها يُدفَنون وســط أحفال مائجة ، وتوضع في أفواه أســرهم ملاعق الذهب ! ! فهل هذه مثاليات الإِســلام كما نراها ؟ وهل تنتصر الدعوة الإِســلامية بهــذا التفاوت الصَّارخ ؟

إن الطيبة أو التقوى أو القدرة على ميز الخبيث من الطيب وإيثار الحســن على القبيح ، كانت المشــاعر التي برز بها ســلفنا الأولون بــل آباؤنا الأقربون . . ولقد عرفتُ فلاحــي قريتنا وأنا صغير ينامون مبكرين بعد صلاة العشاء ، ويستيقظون مع الفجر ، فيذهبون صوب حقولهــم ، وقــد تذهــب إليهــم زوجاتهــم أو أولادهم بالغــداء ، فما يعودون من مزارعهم إلا مع الغروب . . وكانت أراضيهم تدر الســمن والعسل ، وبركات الله تنهمر عليهم بالغدو والآصال .

والآن بعد السهر والسمر على شتى البرامج والنوم حتى الضحى ، وإضاعة الصلاة ، واتباع الغفلات ماذا نجني ؟

والســؤال نفســه مع أهــل الخليج ، لقــد ســمعت معمرين منهم يتحدثون عن الماضي بأســى وإعزاز معًا ! يقولون : كنا فقراء ، ولكن

الرجولة والاستعفاف وتقوى الله كانت تسود الآفاق.. إن الغد مع الشهوات الواعدة الوافدة مُرّ الثمر.

أريد من أمتنا أن تقتبس من حضارة الغرب ما يوافق أو يتواءم مع فطرة الله في مواريثنا.

ثم ماذا على الدعاة والمربين لو درسوا الأساليب التي اتبعها اليابانيون في الاستفادة من هذه الحضارة؟

ثم إن هناك خللًا في التركيب الإنساني لأمتنا طرأ عليها مع ترادف العلل السياسية والاجتماعية، جعل المنطق العلمي يتقهقر، وتحل محله الأوهام، وجعل الاكتمال النفسي يضعف وتسد فراغه بعض الشعائر وصور الطاعات.

وعلماؤنا الكبار لم تخدعهم هذه النقائض؛ ولذلك رفض ابن القيم من الغني البخيل أن يكثر الذكر ويطيل الصيام، فعبادته الأولى العطاء، كما رفض من الداعية الجبان أن يثرثر بالأوراد، ويعتكف بعيدًا عن الناس فعبادته الأولى الأمر والنهي والنصح.

وفي عصرنا هذا لا يخفى ما تحتاج إليه أمتنا كي تنهض من عثرتها، وما أيسر التوفيق بين التقدم الحضاري ومواريث الدين والخلق، والوفاء بحقوق الله.

الفهرس

٨٠- لماذا حرم الإسلام الخمر ؟ وما عقوبتها ؟ ٣
٨١-التدخين عادة شائعة فهل للدين رأي فيها ؟ ٩
٨٢- ما حكمة الزكاة ؟ وما نصابها ؟ ١٤
٨٣- ما العلاقة بين الإسراء وبني إسرائيل ؟ ٢٠
٨٤- لماذا كانت قبلة العالم في أرضنا ؟ ٢٩
٨٥- هل من تكريم المرأة إباحة التعدد والطلاق وجعلها نصف الرجل في الميراث والشهادة ؟ ٣٩
٨٦- ما موقف الإسلام من المرأة في ضوء الأوضاع السائدة في مجتمعاتنا ؟ ٤٨
٨٧-ما أبعاد النشاط الاجتماعي للمرأة على ضوء الاجتهاد الفقهي ؟ ٥٤
٨٨- ما نظرة الإسلام إلى الأسرة وما عمل المرأة في بنائها ؟ ٦١
٨٩- يرى البعض أن النقاب فريضة على المرأة، فما قيمة هذا الرأى ؟ ٦٨
٩٠- يرى البعض أن هناك مملكة في عالم الغيب تتكون من الأقطاب والأوتاد... إلخ، تؤثر في عالم الشهادة، فما قيمة هذا الرأي؟ وما مصادر المعرفة في هذه القضايا وأمثالها ؟ ٧٨
٩١- لم حرم الإسلام لحومًا معينة ؟ وهل لذلك حكمة ؟ ٨٢
٩٢- هل توجد صحوة إسلامية معاصرة ؟ وما أبعادها ؟ ٩١
٩٣- ما مكانة العمل والعلم في الإسلام؟ وهل هما قاصران على العمل العبادي والعلم الديني ؟ ٩٩
٩٤- لماذا لم يحرم الإسلام الرق كما حرم الخمر والربا ؟ وما موقفه الحقيقي من هذه القضية ؟ وهل يجوز للمسلمين في حروبهم مع

أعدائهم أن يعدوا أسرى الحرب رقيقًا؟ ١٠٦
٩٥- ما موقف الإسلام من الحضارة المعاصرة؟ وهل يمكن القول بأن للإسلام حضارة خاصة يدعو إليها؟ ١١٤
٩٦ - هل في استطاعة الإسلام أن يقدم حلولًا للمشكلات الكبرى التي تعاني منها الإنسانية اليوم؟ ١٢١
٩٧- بم تفسر النكسات التي أصابت الأمة الإسلامية بدءًا من الخلاف الداخلي بين عليٍّ ومعاوية حتى يومنا هذا؟ ١٢٩
٩٨- هل نجح الإسلام في تحقيق أهدافه خلال تاريخه الطويل؟ ١٣٥
٩٩- كيف تتصور مستقبل الإسلام في عالم الغد؟ ١٤٣
١٠٠- إلى أي مدًى يمكن أن نقتبس من هذه الحضارة المعاصرة؟ ١٥٠

***